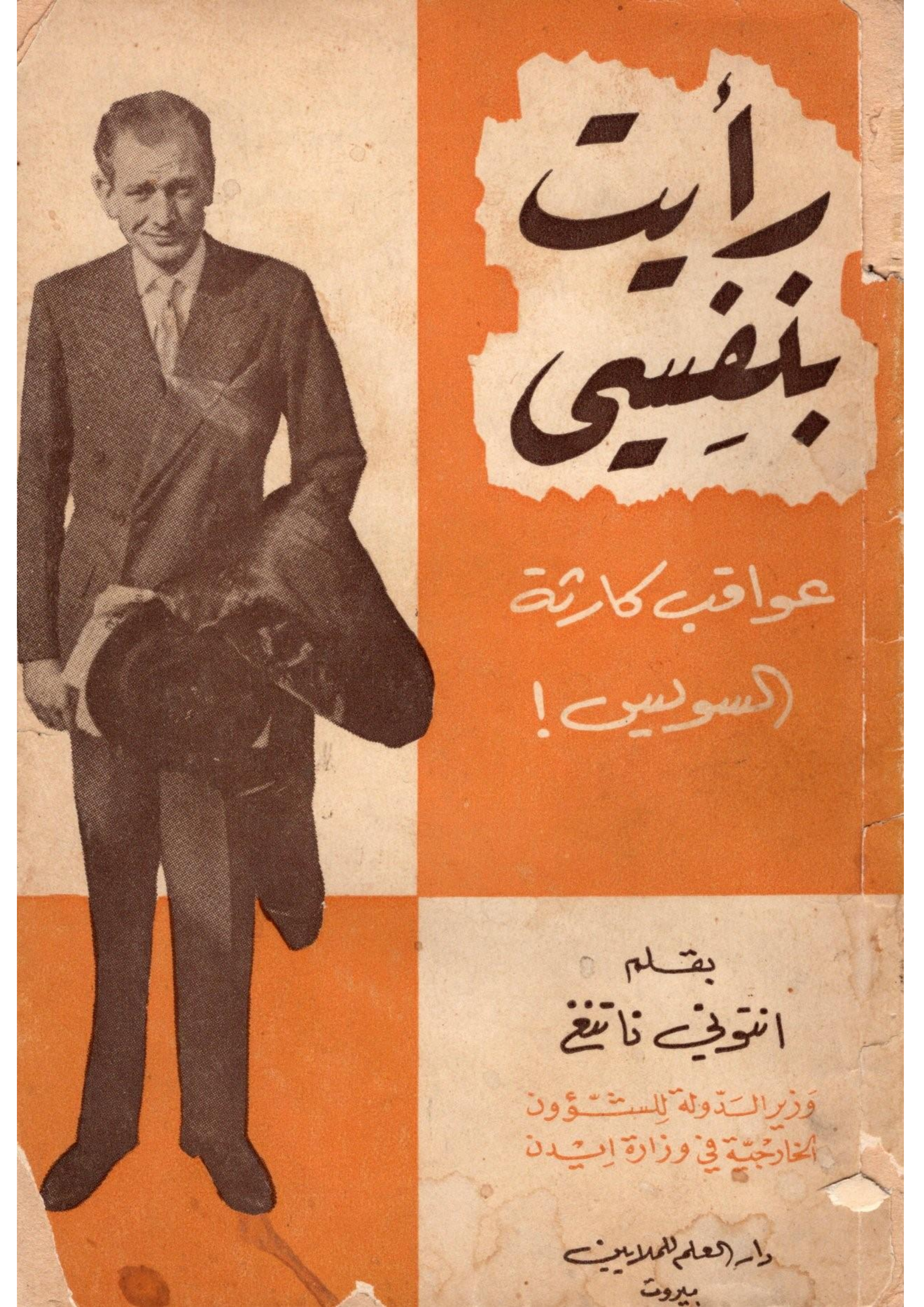

رأيت بنفسي
عواقب كارثة السويس!
بقلم
انتوني ناتنغ
وَزير الدّولة لِلشّؤون
الخارجيّة في وزارة إِيدن
دار العلم للملايين
بيروت


م. سرمد حاتم شكر

رأيت بنفسي

عواقب كارثة السويس !

بقلم

انتوني ناتنغ

وزير الدولة للشؤون الخارجية في وزارة أيدن

نقله الى العربية

جان غبريل

دار العلم للملايين

بيروت

الطبعة الاولى

بيروت ، نيسان ١٩٥٨

مقدمة

دونت في هـذه الصفحات الانطباعات التي توفرت لي خلال جولة قمت بها في اوائل سنة ١٩٥٧ في بلدان شمالي افريقيا والشرق الاوسط . وقد نشرت هذه الانطباعات لاول مـرة وبصورة مكثفة في صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون كما اقتبستها الصحف في الولايات المتحدة وفي المملكة المتحدة وكثير غيرهما من البلدان .

ولم تكن لدي ، اثناء ظهور تلك المقالات في الصحف ، اية نيـة في نشر استنتاجاتي بشكل كتاب في يوم من الايام : فكنت اشعر ، من جهة ، ان الحوادث سوف تطغى عليهـا وتتعداها بسرعة ؛ ومن جهة اخرى ، كنت اتردد انا الـذي نشرت كثيراً من الكتب ولكن لم أؤلف واحداً منها البتة ، في ان اثقل بنفسي كاهل جمهور القراء . ولكن انطباعاتي ، كما لاحظ ذلك كثير من اصحاب الرأي ، بعيدة عن ان تكون قد فات اوانها ، فهي ليست الان اقل اهمية منها يوم ظهرت الى الوجود .

من الغريب ان اول من اوحى الي بالقيام بجولة في الشرق الاوسط هو السير ونستون تشرشل . وقــد كان ذلك في سنة ١٩٥٣ عندما كان السير انطوني ايدن متغيباً بسبب من مرضه والمستر سلوين لويد في نيويورك ، فدعيت لمناقشة بعض مشاكل الشرق الاوسط في ١٠ داوننغ ستريت . وكان السير ونستون يرميني باسئلته بسرعة المدفع الرشاش وانا ادبج الاجوبة على غير كياسة . وكان ان اعترفت بالجهل رداً على خمسة اسئلة متتالية ، فحدق دولته بي من فوق نظارتيه وقال لي في تكشيرته المعروفة جيداً لدى ضحايا نكته العديدين في مجلس العموم : « ولكن معلوماتك ايها الفتى تشكو نقصاً فاضحاً . يجب ان تذهب وتزور تلك البلدان وترى تلك الشعوب ، وبعد ذلك تستطيع ان تأتي وتقابلني . »

وغني عن البيان ان هذه الفكرة استرعت انتبــاهي كله . ولكن الفرق كان شاسعاً ، بسبب من مرض وزير الخارجية ، بين إيعاز رئيس الوزراء واذنه بترك البلاد . ومع توالي الامور كان انشغالي في البرلمان وبعدئذ في الامم المتحدة كبيراً الى حد ان اقرب فرصة سنحت لي ان ازور الشرق الاوسط باعتبــاري وزيراً كانت عندما قصدت الى القاهرة في ايلول ١٩٥٤ للقيام بمحادثات حول اقرار الاتفاقية الانكليزية المصرية مــع جمال عبد الناصر .

وبعد ذلك الحين وضعت جانباً كل فكرة حول نصيحة السير ونستون حتى نهاية عام ١٩٥٦ عندما استقلت من الحكومة معترضاً

على سياسة التدخل الانكليزي الفرنسي في السويس . وبعد ان فعلت ما فعلت ونفضت يدي من عمل هو في نظر العرب اعتداء اثيم على العالم العربي كافة ، شعرت بأنَّ من واجبي الذهاب الى الشرق الاوسط والقيام بكل ما يمكن فعله لاعادة المياه الى مجاريها بين بلادي وبين اصدقائها العرب. وقد استحثني على ذلك اصدقاء لي في البرلمان ، وبنوع خاص في حزبي ، وفي غيرهما من الهيئات الرسمية وغير الرسمية .

وبعد ان قضيت بضعة اسابيع اتمم معاملات التأشيرة وأضع التصاميم والبرامج لرحلتي ، اقلعت الى مراكش في رحلة اقتضتني اجتياز عشرين الف ميلٍ في المنطقة الاكثر اضطراباً في العالم الحديث . وعندما انتهيت كنت قد زرت ثماني عشرة دولة من دول الشرق الاوسط وتحدثت مع سياسيين وفلاحين ، ديبلوماسيين وطلاب ، اهل نفط وشيوخ قبائل . كما كنت قد قمت بمحادثات حول قضايا عالمنا المضطرب مع هؤلاء الرجال شخصياً : الملك فيصل في العراق والملك حسين في الاردن ، والملك سعود ، والرئيس عبد الناصر ، ونهرو ، ونوري السعيد ، و بن غوريون واسكندر ميرزا والرئيس شمعون والرئيس منديس وحكام الكويت والبحرين ، والحبيب بو رقيبه ، وبن حليم في ليبيا ومبي بكاي في مراكش والعسلي في سوريا.

واذ تسنى لي شخصياً ان اظفر خلال هذه الرحلة ببعض من تفهم المشاعر الحقيقية والاعتقادات الكامنة للعالم الاسلامي ، اود

ان انقل ذلك الى كل من يدرس هذه المسائل بعقل منفتح مجرد.
ان في اميركا وانكلترا لكثيراً من الغموض والالتباس حول مشاكل
الشرق الاوسط . فحسبي في هذه الفصول التالية ان اضع الامور
في اتجاه صحيح ، وان اخلق تفهماً افضل للاهداف الـتي يبغي
سكان هذه المنطقة من العالم تحقيقها ، وللطريقة التي تمكننا نحن
الغربيين من تنمية تعاون حقيقي شريف معهم .

١ . تونس ومراكش

ان اجتياز اسبانيا جواً الى مراكش في الربيع المبكر لتجربةٌ مدهشة. لقد كنت لاول وهلة لا اكاد اصدق اننا نطير نحو افريقيا وليس منها . فكانت الهضبة الاسبانية الداخلية الكبيرة تبدو كأنها الصحراء الكبرى : قفر اجرد صخري لا تحييه القرى النائمة تحت غطاء من الغبار الرمادي الذي يبدو كأنه قد انتثر عليها منذ قرون ولن يكنس عنها في يوم من الايام . فحتى الانهر نفسها ، التي تصور خطوطاً موحلة سمراً في المنظر العام ، تبدو تعبة مهملة ، كما لو لم يعد لديها حياة تمنحها للارض.

وبالعكس من ذلك فان مراكش تحمل شكلا اوروبياً ، ببيوتها المدهونة حديثاً بالاحمر والابيض والازرق وبمنظرها العام الذي يبلغ الشواطىء الذهبية باخضرار غني واسمرار شديد . ومدينة الرباط ، عاصمة هذا البلد المستقل حديثاً ، يمكن ان يحسبها المرء مدينة « نيس » او « كان » الفرنسيتين . لقد تقلصت المدينة العربية القديمة او تكاد امام الفيلات الحمر والمنازل البيض المحاطة بالحدائق

الخضر فليس الا قصر السلطان والميدان الكبير الذي يمتد على طول جدرانه يبدوان شرقيين ولكن حتى القصر نفسه بقرميده الابيض والازرق الذي يعلو قناطره المورية جدير بان يكون قد بني لمشهد سينمائي وليس لسكنى سلطان عربي .

وفكرت : هل من الممكن ان تكون هذه البلاد تتطلع الى الغرب بقدر ما يبدو عليها ظاهرياً ؟ اغلب الظن ان مراكش وشقيقتها تونس قد اصبحتا بعد الكفاح المرير في سبيل الاستقلال تمران مؤقتا على الاقل ، في مرحلة تتميز بردفعل ضد الغرب.. ضد اوروبا . لم يمر بعد الا اعوام أربعة على إقدام الفرنسيين ، في محاولة يائسة لتأجيل استقلال مراكش ، على خلع السلطان ونفيه الى كورسيكا . وفي تونس ايضا احتفظ الفرنسيون بالحبيب بو رقيبه في السجن والمنفى عدة اعوام في محاولة مماثلة للابقاء على الحكم الفرنسي . وكذلك في الجزائر حيث لا يزال الفرنسيون يصمدون في عنف بوجه التيار الوطني . فكيف يستطيع اذن المراكشيون والتونسيون الذين ربحوا معركة الاستقلال ضد سياسة عنف واحدة ان يكونوا مستعدين لنسيان الماضي وللعمل على اقامة علاقات سياسية تتوفر فيها روح الصداقة مع اولئك الذين كانوا في الماضي القريب يشكلون قوى الاحتلال ؟

لقد بدا ذلك مستحيلاً ؛ غير انه امر واقع فعلاً . صحيح ان هنالك حوادث لا تزال تقع من حين الى حين وان هنالك اموراً عديدة وخطرة لا تزال تتطلب الحل بين الفرنسيين من جهة وبين التونسيين والمراكشيين من جهة اخرى ؛ ولكني

استناداً الى كل ما رأيت وسمعت في مراكش، ثم في تونس حيث قصدت لمقابلة السيد بو رقيبه ، استطيع ان اقول بانه ليس من شك في ان هذين البلدين العربيين الجديدين يتطلعان نحو الغرب بحثاً عن اصدقاء وحلفاء .

ان عدوى الحياد التي تفشت في كثير من البلدان الحديثة الاستقلال لم تصب اي واحد من زعماء هذين البلدين . ان واحداً منهم ليس معجباً بمفهوم نهرو للحياة الدولية . إنهم يهدفون الى تأسيس اتحاد فدرالي بين دول شمالي افريقيا يكون مرتبطاً بالغرب ارتباطاً وثيقاً . انهم لا يرغبون في اي تبادل مع الاتحاد السوفياتي ؛ بل إنهم لا ينوون الدخول مع الاتحاد السوفياتي في علاقات ديبلوماسية ما لم يوطدوا علاقتهم بالغرب .

ولم يتوصل اي واحد من بين جميع الذين تحدثت اليهم في مراكش الى الاعراب عن موقف بلاده بتعبير اكثر وضوحاً من تعبير رئيس الوزراء ، سي بكاي : انه رجل مديد القامة شديد التهذيب يبدو وكأنه لا يزال ذلك الملازم في الجيش الفرنسي الذي كانه سابقاً ، ويزيد من ظهوره بهذا المظهر ذلك العرج الشديد الناتج عن فقدان ساقه عندما كان يقود فرقته في محاولة النزول في مدينة سالير نو الايطالية اثناء الحرب الاخيرة . فقد شرح لي أوضح الشرح ، متكلماً بصراحة واقناع ، موقف السلطان وموقف الحكومة وموقفه هو بالذات .

لقد قال لي ان مراكش لم ترغب في أن تنضم الى الجامعة العربية وتسهم في الحزازات والمنازعات والدسائس التى تقوم في الشرق

الاوسط . واذ سألته ما اذا كانت مراكش تنوي الانضمام الى حلف شمالي الاطلسي او ما اذا كانت قد بحثت ذلك لم يرفض الفكرة ، بل بدا على العكس مهتماً بها ومعجباً ايضاً . فذكّرني بأن السلطان قد تكلم عن مراكش باعتبارها جسراً بين افريقيا واوروبا ووافق على ان القواعد الاميركية في الاراضي المراكشية تجعل البلاد شبيهة جداً بتركيا بوصفها جسراً بين آسيا واوروبا. هذا ولم يكن مي بكاي محتاجاً الى كثير من الوقت لكي يرى ان مراكش ، في عهد القذائف البعيدة المدى هذا ، سوف تكون في الخط الامامي لأية حرب رئيسية ، ولذلك فأنه يحق لها ان تنخرط وتتعاقد مع الغرب كشريك في الاتحاد الغربي .

والى ذلك فان لدى مراكش وتونس ايضاً مبرراً آخر للدخول في حلف شمالي الاطلسي . فهذا كما اظن يساعد على حل مشكلة وجود القوات الفرنسية في هذين البلدين . فبالرغم من ان فرنسا قد اعترفت باستقلال تونس ومراكش ، فلا يزال الفرنسيون – او بالاحرى العسكريون منهم – يتصرفون كما لو كانوا لا يزالون « يملكون المكان » . ان في مراكش قوة فرنسية تتألف من ١٠٠ الف جندي ؛ وفي تونس ٢٠ ألفاً بالاضافة الى القاعدة الفرنسية البحرية والجوية الواسعة في بيزرت . فهؤلاء الجنود يتنقلون على هواهم ، واذا ما طرح سؤال او رفع احتجاج على تصرفاتهم الاعتباطية سارعوا الى الرد بان لهم الحق الشرعي في نقل القوات داخل اية منطقة وحولها ، من غير ان يستأذنوا احداً. وقد ذكّر الجنرال كوني ، القائد العام للقوات الفرنسية في

مراكش ، الحكومة المراكشية بكثير من الوقاحة بانه لا حق لها مطلقاً في تعيين عدد قواته او مراكزها ...

والواقع أنه عندما كفت يد فرنسا لم تعقد اي اتفاقات حول القوات الفرنسية . ولهذا فلما لم يكن هنالك اتفاق قانوني فليس ثمة سبيل للسلطات المراكشية والتونسية لمراقبة عدد او تحركات القوات الفرنسية .

لقد تقدم سي بكاي وبورقيبه من الحكومة الفرنسية بطلبات متتالية لوضع اتفاق يتضمن بعض التحديدات في عدد القوات ويقتضي تركيزها في مناطق معينة كقاعدة بيزرت في تونس مثلاً . ولكن الفرنسيين ردوا بانه يجب ان يكون لقواتهم حرية غير محدودة في التنقل ، وذلك لكي تتمكن هذه القوات من حماية الفرنسيين المحليين وخفر الحدود الجزائرية والحؤول دون تهريب السلاح الى الوطنيين الجزائريين .

يتجاهل الفرنسيون ان الخطر الحقيقي على مواطنيهم في تونس ومراكش انما ينشأ عن تصرفات القوات الفرنسية في هذين البلدين وعن الاحتجاجات التي يثيرها هذا التصرف . اما فيما يتعلق بالحدود الجزائرية فقد اوضح لي بو رقيبة بشيء من الحرارة انه اذا كان الفرنسيون يريدون خفر الحدود الجزائرية فهذا امر يعنيهم هم وحدهم ، ولكنه لا يرضى ولا شعبه يرضى بان تتحول تونس الى قاعدة حربية فرنسية تنطلق منها الهجمات على الاخوان العرب في الجزائر .

ان بو رقيبة على حق . والى ذلك فان الموقف الفرنسي هذا

يساعد رجالا من مثل علال الفاسي ، الزعيم المتطرف في حزب الاستقلال المراكشي ، الذي اثار الشعب – خارجاً عن مشيئة السلطان – ضد الفرنسيين في مستعمرتهم القريبة من موريتانيا ، والذي يتمنى ان يرى النفوذ الفرنسي يتقلص عن مراكش وعن كل افريقيا الفرنسية .

فاذا ما انضمت تونس ومراكش الى بعض لجان حلف شمالي الاطلسي فان مشكلة التحصينات الفرنسية سوف تحل ضمن هذا الاطار . فتظل تلك القوات مرابطة في الاراضي التونسية والمراكشية بصفتها قوات حلف شمالي الاطلسي ، وتكون قواعدها قواعد حلف شمالي الاطلسي ، كما ان عددها وتنقلاتها تحدد بالاتفاق مع الحكومتين التونسية والمراكشية ويكون ترتيبها خاضعاً نوعاً ما لمراقبة حلف شمالي الاطلسي حيث تستطيع تونس ومراكش رفع صوتهما .

ليس ثمة شيء أضمن لمصلحة فرنسا من ان يتوصل الى حل كهذا . فلنرفع كل التباس : ان بورقيبه والسلطان وسي بكاي هم ، وبالرغم من كل الاهانات التي لاقوها على يد الفرنسيين ، اعز اصدقاء يمكن ان تجدهم فرنسا اليوم في شمالي افريقيا .

ولم تترك لي محادثاتي مع المراكشيين والتونسيين أي شك في ان السلطان وبورقيبه يريدان استخدام نفوذهما مع عرب شمالي افريقيا . فاكثر ما يحتاجان اليه هو المساعدة الغربية ، مساعدة في طريقة العمل وفي صوغ الكلمات .

فقد قال لي سي بكاي : « يجب عليكم انتم الغربيين ان

تساعدونا بان تبرهنوا للعرب انهم يستطيعون ان يكونوا اصدقاءكم وحلفاءكم ويظلوا احراراً ، يجب ان تتغلبوا على حيائكم وترددكم وتقنعوا الفرنسيين بذلك.»

من الجلي أنه كان يلمح الى مسألة السويس ، ولكن السويس لم تكن وحدها المقصودة . بل ، كما صرح لي رئيس المجلس الوطني المراكشي ومحررو الصحف الكبرى ، كانت فرنسا تستخدم عمليات الضغط في المحادثات المالية مع مراكش . ان البلاد لمحتاجة الى الرساميل الفرنسية لتفادي مشكلة البطالة المتفاقمة . ولكن الفرنسيين يماطلون املا في ان يكف المراكشيون عن الإلحاح في طلب وضع نظام للقوات العسكرية الفرنسية المرابطة في اراضيهم .

ونتيجة لذلك فان رجالا يشغلون المناصب العليا ، من أمثال السيد بلفريج ، وزير خارجية مراكش والسكرتير العام لحزب الاستقلال ، يرتابون أعظم الارتياب في كل ما يفعله الفرنسيون . انهم يظنون ان فرنسا تتوق الى خلع السلطان مرة ثانية وتنصيب احد ابناء الجلاوي زعيم القبائل البربرية السابق ، مكانه ، وهي قد ناصرت هذا الزعيم ضد السلطان ايام الانتداب تمشيا مع مبدأ « فرّق تسد » ودأبت على ذلك حتى أرغمَت على الاقرار بأن السلطان هو الذي يتمتع بتأييد الاكثرية من شعبه . وان مايغذي هذه الظنون هو التنديد والاستياء المتواصلان اللذان تظهرهما فرنسا نحو محمد الخامس وبورقيبه وجميع أعمالهما .

صحيح ان نفوذ السلطان لا يشمل كل زاوية من زوايـا مراكش ، فهو لا يتوق الى فرض شخصيته على بعض المناطق المناوئة له كمدينة مراكش حيث التقاليد البربرية لا تزال قوية . ولكن نفوذه في باقي المناطق قد توطد وهو يحكم بأمان في هذه المناطق التي طالما مزقتها النزاعات القبلية . وهذا سوف يدوم الا اذا طرأ حادث قاهر ، كالمجاعة مثلاً ، وهي التي بوسعها ان تجعل القبائل الجبلية تعمد الى غزو السواحل .

أما فيما يتعلق ببورقيبه فانمركزه في تونس يبدو منيعاً جداً ، بعد ان اضطر صلاح بن يوسف الى اللجوء الى القاهرة . وليس هنالك احد يفوقه رغبةً في رؤية جميع بلدان افريقيـا الشمالية ترتبط بفرنسا بعـلاقات شبيهة بتلك التي تربط الكومنولث ، الذي اعرب لي بورقيبه عن اعجابه به . وللاسف ، فان عد فرنسا في اقامة مثل هذه العلاقات يخلـق ، حتى بين صفوف المعتدلين والمتعقلين من المراكشيين والتونسيين ، خوفاً من ان يكون هدف فرنسا الحقيقي ، اذا ما تمـكنت من القضاء على الوطنيين الجزائريين ، انما هو اعـادة سيطرتها من جديد على جميع بلدان شمالي افريقيا . وهنالك كثير من الظنون في انيكون المشروع الاقتصادي الاوروبي – الافريقي يشكل الوجـه الاقتصادي لهذا البرنامج الاستعماري . فقد صرح لي سي بكاي بقوله : « يا لها من غباوة ان يكون الفرنسيون قد اهملوا استشارة أي من الحكومتين المراكشية والتونسية قبل اطلاق مشروع يتعلق مباشرة بهاتين الدولتين باعتبارهما دولتين افريقيتين وعضوين

في منطقة الفرنك ».

أما فيما يتعلق بالمستقبل فان تونس ومراكش وفرنسا تستطيع ان يؤدي بعضها الى بعض خدمات جمة اذا ما قامت بينها علاقات صداقة . ولكن ذلك يقتضي من الفرنسيين ان يرضوا باستقلال تونس ومراكش عن طيبة خاطر ، ويبدوا رغبتهم في مساعدة ، وليس في اذلال ، هذين البلدين اللذين انتدبت عليهما فيما مضى . وفوق ذلك يجب ان تتوصل الى حل لقضية الجزائر ، فهذه القضية هي بالنسبة الى شمالي افريقيا بمثابة قضية فلسطين بالنسبة الى الشرق الاوسط . انها سم دائم ، ومرض سار في العلاقات الفرنسية العربية من الدار البيضاء الى « بون » . ان النظرة النارية التي علت وجه بورقيبه عندما تكلم عن الجزائر جعلتني أشك في ان تكون تونس وشقيقتها مراكش قادرتين على ان تقدما لفرنسا او للغرب التعاون الذي ترغبان به « ما دامت فرنسا متمسكة بحرب الافناء ضد اخواننا العرب » . هذا وان التحفظ الوحيد الذي أبداه حول الانضمام الى حلف شمالي الاطلسي هو قلقه من ان يعتبر هذا العمل كتأييد لسياسة فرنسا في الجزائر .

لقد كلمني بورقيبه عن آماله ومخاوفه حول الحالة في الجزائر ، مدة ساعة كاملة وبلا انقطاع ، من على السرير الذي استلقى فيه ليستريح من زيارته الى غانا واشتراكه في حفلات استقلالها . كان يشير بيديه كأحد الانبياء ، ويرسم المخططات لدعم نظريته ، وقد اكد أن حلا يمكن ويجب ان يوجد . اما

اذا لم يتوصل اليه فهو لا يعود مسؤولا عن النتائج التي يتركها ذلك في العلاقات بين افريقيا الشمالية والغرب . لقد حاول اقناع الفرنسيين بضرورة التوصل الى حل ولكنهم لم يقنعوا . ثم قال بالحرف الواحد : « ان الفرنسيين مزارعون فهم يتمسكون بأراضيهم بكثير من التشبث ، أما أنتم الانكليز فتجار لا تبغون الاراضي بل تسعون وراء الاسواق » .

وقد تأكدت من ان ذلك صحيح الى حد بعيد عندما زرت الجزائر نفسها .

٢ . الجزائر

لقد ثبت لدي من خلال كل ما شاهدته في الجزائر ان فرنسا سوف تنتهي الى فقدان الجزائر برمتها ان هي بقيت على سياستها الحالية . واني لمتأكد كذلك انه لو حاولت الحكومة الفرنسية كبت جرأتها وزهوها لأمكن التوصل الى حل ، حـــل يؤمن المصالح الفرنسية الحيوية .

ان مرور الزمن ليس في صالح فرنسا . لن يستطيع مجلس النواب في باريس ان يظل في موقف التردد والنفي الذي اطاح بالحكومات الفرنسية بسبب الحرب الجزائرية . من الاجدر ان ينشغل البرلمان الفرنسي ، وبسرعة ، في الاقتناع بان التسويـــة وحدهـــا تستطيع ان تنقذ النفوذ الفرنسي في الجـــزائر من الانطفاء على ايدي الوطنيين الجزائريين . ان كل يوم يمر ، كل رصاصة تطلق ، كل عملية قتل تحدث في بلاد المآسي هذه انما تباعد الهوة بين الفرنسيين وبين العرب ، وتزيد التقاء الفريقين صعوبة وتعذراً .

يقال في بعض الاحيان ان ما يحول دون الاتفاق هو عدم وجود ما يسميه الفرنسيون « مفاوضين شرعيين » من جهة الجزائر . ليس هذا صحيحاً كل الصحة . وإلا فان عدم استقرار اكثرية الحكومات الفرنسية قد يحمل الوطنيين الجزائريين على الامتناع عن اجراء مباحثات مع باريس ..

في الواقع ان ما يمنع الاتفاق هو عدم وجود أي فرنسي من بين الذين يشغلون المراكز الهامة مستعد لتقبل أي حل لا يحتفظ بالجزائر مرتبطة بفرنسا كقطعة منها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى عدم وجود أحد بين الوطنيين الجزائريين يمكنه ان يقبل بحل لا يقر استقلال البلاد . لا شك في ان توفيقاً بين هاتين الوجهتين ممكن اذا ما أرادت باريس ذلك . لو كانت باريس تريد لعمد بورقيبه والسلطان الى استخدام نفوذهما لحمل الوطنيين الجزائريين على القبول بحل معقول . ولكن عندما حاول السلطان استعمال نفوذه في سبيل توجيه زعيم الوطنيين بن بيلا نحو التسوية كانت مساهمة باريس في هذا المجهود ان خطفت بن بيلا ورفاقه بارغامها طائرة السلطان التي كانوا يطيرون فيها على الهبوط في ارض الجزائر بعد ان كانت الحكومة الفرنسية في الجزائر قد منحتها « امان الطيران » . فلا عجب بعد هذا ان يكون السلطان قد شعر بانه ضحية لعملية شائنة كذبت كل تأكيدات السفير الفرنسي في الرباط بان فرنسا تتوق بحرارة الى اجراء تسوية للمشكلة الجزائرية .

وهكذا فان جل ما قدمته فرنسا في سبيل التسوية هو ، اولا ،

انتخابات تحت اشراف دولي (اقتراح غي موليـــه) وثانياً مشروع قرار بجعـل الجزائر دولة فيدرالية (تقدم بـه مونوري) . ولكن هذين العرضين ، ككل العروض الفرنسية ، لا يتبين في أي منهما وميض أمل ، ولو صغير ، بالاستقلال . بل بالعكس فان الانتخابات التي طلبتها حكومة غي موليه في اوائل سنة ١٩٥٧ هي لتمثيل الجزائر في البرلمان الفرنسي وليس في برلمان جزائري في مدينة الجزائر . ان أمراً كهـذا يصعب قبوله على جبهة التحرير الوطني . والسبب في ذلك هو ان تمثيل الجزائر في البرلمان الباريسي لم يكن حتى الآن الا تغطية للتصريح الذي طالما تردده الحكومة الفرنسية والقائـل بأن الجزائر هي مقاطعة فرنسية . ففي فرنسا يوجد نائب عن كل ثمانية عشر ألف نسمة ، أما في الجزائر فهنالك نائب واحد عن كل نصف مليون نسمة !.

لقد أعلن مشروع قرار السيد مونوري ان الجزائر « يجب ان تكون مؤلفة من مقاطعات فيديرالية تتولى امرها بنفسهـا في ظل الحرية والديموقراطية» .الا ان جميع الآمال بتأمين الاستقلال التي سطعت عند سماع هذا الاعلان الطنّان قد جرفتها الجملة القائلة بان الاتحاد الفيدرالي الجزائري سوف يظـل « جزءاً لا يتجزأ من الجمهورية الفرنسية » ...

وفي كل من الصعيدين الفيدرالي والاقليمي كان واضحاً أن الفرنسيين هم الذين سيتولون السلطة لا الجزائريين . كان من المقرر ان يتألف في كل اقليم مجلس تشريعي وحكومة ، ولكن

الممثل المحلي للجمهورية الفرنسية هو الذي يعين اعضاء الحكومة، وكان من المقرر ايضاً ان يتألف في غضون سنتين مجلس فيدرالي وحكومة ؛ ولكن الجمهورية الفرنسية تحتفظ بحق المراقبة ليس على العلاقات الخارجية وشؤون الدفاع وحسب بل وعلى البوليس، والامن ، والانتخاب ، وتنظيم الاحزاب السياسية ، والنقد المتداول، والمالية ، والجمارك، والضرائب، ومصاريف الدولة ، والقضاء ، والتربية ايضاً .

وهكذا كان من المقرر السماح للجزائريين «بأن يديروا شؤونهم بأنفسهم في ظل الحرية والديموقراطية » !

وهكذا فان من المقرر ايضاً إلغاء منصب الحاكم العام على ان تبقى سلطته مرتدية زي الوزير المفوض الفرنسي . فهو الذي يتولى مع ملازميه في كل اقليم مراقبة الدوائر المدنية متمتعاً بالسلطة على جميع موظفي الحكومة في الجزائر . وفوق ذلك ، ولكي يتم البرهان على انه ليس هنالك أي تغيير البتة ، فان سلطات الوزير المفوض وممثليه يجب ان تشمل سلطة النظر « في ما اذا كانت بنود هذا القرار وبنود الدستور الفرنسي محترمة أم لا . »

لست استطيع ان اعقل كيف يمكن ان يتوقع من أي وطني يملك شيئاً من الاحترام لنفسه ان يقبل بهذه الديموقراطية التهريجية. والى هذا فقد كانت تمثيلية التمويه هذه هي نفسها كافية لجعل الاحزاب اليمينية في باريس ترفع صوتها وتطيح بالحكومة التي تقدمت بها . ان أقل ما يمكن حمل جبهة التحرير على قبوله – وذلك مع اكبر مجهود وتحت اشد ضغط يمكن ان يقوم بهما

اصدقاؤها من الفرنسيين والتونسيين — هو انتخاب مجلس جزائري وإجراء محادثات بعد ذلك بين فرنسا وممثلي هذا المجلس للتفاهم على انجاز الاستقلال .

ان تقسيم البلاد الى ستة اقاليم فيدرالية ، يعصف في كل منها الاداريون الفرنسيون والمتنفذون منهم ، يستشم منه رائحة قوية لسياسة « فرق تسد » التي كثيراً ما رغبت فرنسا اصطناعها في مستعمراتها . وقد اشار الى ذلك السيد بورقيبه في تعليقاته على صدور التنظيمات الجديدة ، وهي تعليقات شكلت اعنف انتقاد قام به المعلقون ضد السياسة الفرنسية .

ما من شك في ان اجراء مفاوضات لوقف النـار على أي اساس ، كان يقتضي الافراج عن الزعماء الجزائريين السياسيين بما فيهم بن بيلا الذي يصر الفرنسيون على ابقائه معتقلاً كل الاصرار . وليست هذه مسألة كرامة بل مسألة سياسة واقعية . ان الزعماء الجزائريين الموجودين حالياً في الميدان ليسوا سوى زعماء ثانويين ، فلن يكونوا اكفاء ولا واسعي التمثيل للتفاوض بالمسائـل السياسية . ولكن السيد لاكوست يرفض بتعنّت اخـلاء سبيل بن بيلا ورفاقه — وباريس تدعم الحاكم العام وتؤيده كل التأييد .

من الثابت ان السيد لاكوست لا يرغب في حل القضية . والسبب الاول في ذلك هو ان الحل يفقده مركزه ، فأن هنالك قليلاً من الفرنسيين الذين يقبلون بالتخلي عن وظيفة حكومية ما لم تخلعهم هي ببطلانها . اما السبب الثاني فهي غاية اقتصادية محضة . ان في الجزائر رساميل ضخمة ، وباريس تخاف عليها من المصادرة

اذا ما وصل الوطنيون الى الحكم . واهم من هذا ايضاً تفجر النفط حديثاً في القسم الجزائري من الصحراء الكبرى .

يرى الفرنسيون في هذا الاكتشاف الحيوي المهم املين سماويين : اولاً انهم يعتقدون ان النفط سوف يوفر الاموال اللازمة للحرب في الجزائر ، وهم يمنون النفس ، ثانياً بالاستغناء في القريب العاجل عن نفط الشرق الاوسط ومشاكله نظراً لضخامة الحقول البترولية التي عثروا عليها . وقد قيل لي ايضاً في مدينة الجزائر ان الانتاج المتوقع لهذه الحقول الجديدة سوف يكفي لسد حاجات كل اوروبا الغربية ما عدا بريطانيا .

اما الامر الذي لم اعثر عليه في الجزائر فهو انعدام اي اقتناع بان الاستقلال ، اذا كان ناتجاً عن مفاوضات في فرنسا وتفاهم معها وليس كنتيجة لهزيمة فرنسية ، سوف يؤثر على حصة فرنسا من نفط الصحراء الكبرى بل وجدت ثمة اقتناعاً بأنه سوف يمكّن فرنسة من انفاق عائدات النفط على مشاريع اعود عليها بالربح من اقتناص الجزائريين .

وامام الاعتبارات الواقعية لهذا الاكتشاف الجديد يبدو ضعيفاً وثانوياً ذلك العذر العاطفي الذي طالما يردده الفرنسيون والقائل بان كل استرخاء من قبل فرنسا في الجزائر كفيل ان يحمل الفرنسيين المقيمين هناك على القيام باعمال العنف . ان هذا العذر لم يكن يوماً شرعياً . صحيح ان غي موليه عندما زار مدينة الجزائر في شباط سنة ١٩٥٦ قد رمي بالطماطم (البندورة)

من قبل المقيمين الفرنسيين الذين خافوا من ان تتخلى حكومته عنهم . ولكن الفرق شاسع بين قذف رئيس وزارة فرنسي بالطماطم وبين كفاح الجزائريين حتى الموت ضد السيطرة الاجنبية التي تثقل كاهلهم ، وهم يفوقون الاوروبيين عدداً بنسبة تسعة الى واحد .

وعلى اية حال فان عدد الفرنسيين الجزائريي الاصل عرف في الماضي كثيراً من المبالغة بغية دعم قضية الاحتفاظ بالجزائر كمقاطعة فرنسية . ان العدد الرسمي حالياً يقارب المليون ونصف المليون . وباستطاعتي ان اؤكد ان عدد الفرنسيين الحقيقي لا يتجاوز نصف المليون . والباقي هو خليط من الاسبان والطليان واليونان والمشرقيين وسائر الاجناس . في مدينة وهران مثلاً يشكل الاسبان اكثرية ساحقة بين السكان الاوروبيين ، والفرنسيون اقلية صغرى . فليس هناك الا مدينة الجزائر حيث يستطيع الفرنسيون ادعاء الاكثرية .

والى هذا فانه لمن الامور القابلة للجدل ان يكون هنالك بين الفرنسيين من هو مستعد للبقاء في الجزائر لمقاتلة الجزائريين يوم تكون الحكومة الفرنسية قد دعته للرجوع الى بلاده. لقد احتاط المقيمون الاغنياء للامر فهربوا اموالهم الى خارج الجزائر ، ولكثير منهم رساميل موظفة في اميركا الجنوبية . والان فان فكرة جديدة تبزغ الى الوجود . وهي ان هنالك مناطق في فرنسا اقل تقدماً من الجزائر نفسها . فان احد الملاكين الفرنسيين وهو قنصل عام سابق في مدينة الجزائر ، قد ابتاع بعد رجوعه الى فرنسا

عدداً من المزارع المهجورة في قضاء الدوردوني ، وهو يقدّر ان الارباح التي سيجنيها منها في السنوات العشرين القادمة تبلغ مليار فرنك أي مليونين وربع المليون من الدولارات.

تستطيع الحكومة في مدينة الجزائر ان تطلي الحيطان بعبارات «ستعيش الجزائر فرنسية» . ولكن فيما يحتاط كل فرنسي لليوم الذي تصبح فيه الجزائر جزائرية لن يعود لأي كمية من الشعارات قوة على الاقناع او التأثير بأي شكل من الاشكال على السكان المحليين الذين تنوي فرنسا إبقاءهم حيث هم . الواقع هو ان الوطنيين واثقون من ان الفرنسيين سيجلون من غير شك. وحكومة الجزائر تلقي اللوم في ذلك على مشاهير الفرنسيين القلائل من منتقدي السياسة الفرنسية ، امثال منديس فرانس الذي كان مسؤولاً بنوع خاص عن كف يد فرنسا عن كل من تونس ومراكش . ولكن بالرغم من كل ما قد يكون للسيد منديس فرنسا من تأثير على الرأي العام الوطني فان الخطأ الحقيقي يقع على عاتق باريس ، وعلى حكومة الجزائر ، وعلى المقيمين من الفرنسيين .

فالبرلمان في باريس يدعم سياسة العمليات الحربية ضد الوطنيين ، ولكنه يرفض التصويت على الاموال اللازمة لدفع تكاليفها ؛ وفي الجزائر لم يقم الفرنسيون بأية محاولة لعرض قضية الفرنسيين المقيمين هناك على السكان العرب . اننا لا نخطىء اذا قلنا ان نقطة الاتصال الوحيدة بين الادارة الفرنسية والجزائريين التسعة الملايين ليست الا الحراب . فلم أرَ وانا في الجزائر ابة

صحيفة فرنسية تصدر بالعربية . واكثر من هذا فمن بين رجال القوات المحتلة التي يبلغ عددها نصف المليون لا يوجد الا ١٣٠ فقط يتكلمون العربية . وعندما لفتّ نظر السيد شوساد السكرتير العام لحكومة الجزائر الى هذا الامر رفع كتفيه ازدراء وهو يقول مؤكداً ان اغلبية العرب يتكلمون ويفهمون الفرنسية تماماً . ان النقاش لمستحيل حقاً في مثل هذا الجو من التفكير !..

وهو مستحيل ايضاً مع هؤلاء الفرنسيين الجزائريين الذين لا يزالون يؤكدون ان الثوار ليسوا سوى حفنة من قطاع الطرق المتوحشين . وفي الواقع – ويسلم بذلك عدد من اعضاء حكومة الجزائر عندما يتكلمون همساً – انهنالك عدداً متزايداً لايستهان به من المواطنين المتوسطين يدعمون المصلحة الوطنية ، بعضهم بالمال ، وبعضهم باساليب اكثر فعالية . وتعود هذه الحركة في معظمها الى رغبة الجزائريين في مناصرة المجاهدين كي يكونوا هم ، وليس الفرنسيين ، قابضين على زمام الحكم . وهنالك عامل آخر يسهم في تعظيم حركة التطوع في جبهة التحرير الوطني ،وهذا العامل هو البطالة العائدةالى كثرة السكان وقلة الرساميل الموظفة . (ان معدل زيادة السكان يبلغ حاليا نصف المليون سنوياً ، على مجموعة تزيد قليلاً على العشرة الملايين نسمة) . وقد اصابت البطالة اكثر ما اصابت طبقة الشباب فأخذوا ينضمون الى جبهة التحرير اما رغبة في المغامرات واما لانه ليس لديهم ما يعملون . وهكذا فليس من المستحسن ان

نتعامى عن الواقع ونتجاهل أن الحركة الوطنية آخذة بالانتشار بين جميع فئات المجتمع :

ويرد الفرنسيون على هذا بقولهم ان الموقف العسكري هو الآن خير منه منذ سنة . الا ان هذا لا يعود الا لنزول اكثر من نصف الجيش الفرنسي الى الميدان. ان الوطنيين يتكبدون كثيراً من الخسائر ، والسلطات العسكرية باعتمادها المساومة على الاسرى في اعنف طرقها تتوصل الى العثور على كثير من القواد الوطنيين الصغار وإلقاء القبض عليهم :

لكن العمليات العسكرية وحدها لن تستطيع ابداً القضاء على الثوار . هذا ما قاله لي السيد شيفالييه ، محافظ مدينة الجزائر عندما اجتمعت به لبحث قضية الجزائر . ولسوء الحظ فان الافكار التحررية والمعارضة العاقلة للسياسة الفرنسية التي تتوفر لدى هذا الرجل الذي هو ابن لفرنسا والجزائر معاً ، لتبدو صوتاً ضعيفاً في تيه كبرياء مواطنيه المزيفة وتفكيرهم السافل . فقد قال لي بالحرف الواحد: «قد نتوصل بواسطة نصف المليون جندي الى التغلب على الثوار . ولكن ماذا عساه يحدث عندما نسحب معظم هذه القوات ؟ — سوف تندلع الفوضى من جديد ، والى هذا ، كما اردف السيد شيفالييه ، فكم يلزم من الوقت ليتم الانتصار على الثوار ؟ اجل اننا نقرأ كل اسبوع عن مقتل عشرين او ثلاثين او اربعين من الجزائريين ولكن ما ان يقتلوا حتى يحل محلهم سواهم .»

وهنالك امر آخر سوف يجعل القتال في الجزائر مستمراً من

جهة الجزائريين ، وهو جباية « اموال الدفاع » التي اصبحت تشكل وسيلة ناجعة جداً لاستمرار حالة الحرب . « واموال الدفاع » ليست المساعدة الوحيدة التي يستطيع الجزائريون التوصل اليها بسهولة ، فان المساعدات ترد من الخارج بانتظام وخاصة من تونس . لقد اقر السيد بو رقيبه ضمناً بأنه مضطر الى منح الوطنيين الجزائريين مساعدة اكثر من معنوية ، ولدى الفرنسيين انفسهم دلائل قاطعة بان المساعدات المادية تتسرب عبر الحدود التونسية . وفوق هذا فان لدي قليلاً من الشك ، وبو رقيبة اقل شكاً مني ايضاً ، في ان عبد الناصر سوف يخطو خطوة كبيرة في المساعدة ان لم تأت هذه من تونس ؛ وهذا يعني امداد جبهة التحرير الوطني بالاسلحة السوفياتية والخبراء والفنيين الخ ...

من الطبيعي ان تثير مساعدة تونس للوطنيين الجزائريين غضب الفرنسيين الذين يتمسكون بالرأي القائل انه يجب على السيد بو رقيبه الا يتدخل خارج بلاده في شؤون تتعلق بفرنسا وحدها . فان طول الحدود وطبيعة المنطقة يضطران الفرنسيين الى تركيز قوات عديدة على الحدود لحمايتها ومنع المساعدات من التسرب . وحتى متى توفرت زيادة الجنود فهل سيقبل البرلمان الفرنسي بالتصويت على المزيد من الاموال ؟ ان الثورة الجزائرية تكلف فرنسا حالياً بين البليون (الف مليون) والبليون والنصف من الدولارات سنوياً . فلن تستطيع فرنسا ، وهي مهددة هكذا بازمة اقتصادية مريعة ، الاستمرار على هذا المقدار من التكاليف ، فكيف اذن تزيده ؟ إنها إن لم تتوصل الى

السلم فعليها ان تلجأ الى الاقتصاد اكثر .

وليس من شك في ان هذه كانت الغاية من تخلي السلطات الفرنسية في اوائل سنة ١٩٥٧ عن سياسة القضاء التام على جبهة التحرير وحملها على القبول بوقف شامل للنار . ومنذ ذلك الحين اخذ الفرنسيون يبنون آمالهم ويوجهون سياستهم نحو اقـرار السلم في مناطق محدودة ويحققون وقف النار المحلي في كل منها. والهدف الان هو اجراء انتخابات في المقاطعات التي « تم فيها السلم » وتشجيع المسلمين عـلى ترشيح انفسهم لمراكز رئاسة البلديات وغيرها من المراكز البلدية الاقل اهميـة . غـير ان محادثاتي مع الزعماء المسلمين لم تترك لدي ادنى شك في ان هذه الامال باطلة . لقد انتشرت الثورة انتشاراً واسعاً بين صفوف الشعب واصبح العنف سلاحاً قوياً متفوقاً . فان الخـوف من انتقام الثوار يضطر الحفنة القليلة من الجزائريين الذين قد يرضون بشغل وظيفة تحت السلطة الفرنسية ، يضطرهم الى الاحجام عن ترشيح انفسهم . والقضاء على هذا الخوف يقتضي اقرار السلم في جميع انحاء البلاد .

وهكذا فان الجزائر لا تزال معضلة فاجعة وهي سوف تظل كذلك ما دام التعنت والطيش يعميان كلاً من الفريقين المتقاتلين (كذا) . قد تربح فرنسا اليوم بعض المعارك ولكنهـا لن تربح الحرب ولا يمكن ان تربحها . لن يقبل الجزائريون ابداً بالعرض العجيب الذي يريد اعتبارهم هم واراضيهم جزءاً من فرنسا ، فعندهم عن يمينهم وعن يسارهم مثلان ، هما تونس ومراكش

الدولتان المستقلتان اللتان ظفرتا باستقلالهما بالدم والكفــــاح ؛ وهم يعلمون ايضاً ان هنالك في افريقيا السوداء نفسها بلدانـــاً تتمتع بدرجة من الحكم الذاتي لم يسبق لهم ان عرفوا مثلهـــا في الجزائر . وهكذا فما دام الجزائريون يعلمون مـــا يمكنهم ان يجنوه بواسطة المثابرة على الضغط والقتال ، فانهم لن يهدأوا ما لم يظفروا بالاستقلال .

ويستطيع المرء ان يتبين هذا الامر بجلاء وهو يسير في المدن والقرى ، وان يستشمه بنوع خاص من الشوارع المقفرة والبيوت المظلمة وقد دقت ساعة منع التجول . ان هواء منتصف الليل متوتر بذلك الصمت المتوجس ، فوراء النوافذ المقفلـــة يكمن تآمر ينذر بالويل : لقد اختلى الوطنيون كي يقاتلوا في يوم آخر . وفي الصباح عندما يذهب العرب الى اعمالهم مارين عبر الشوارع المحصنة تبدو علائم البغض – البغض الاسود الذي لا يلين – تزداد عمقاً كلما مروا امام واحدة من مئات الدوريات العسكرية التي تتبختر في المدن ليلاً ونهاراً . فوراء هذه الوجوه المتجهمة الخائفة تتوقد نيران الوطنية المتحمسة . عندمـــا يرى المرء ذلك يدرك تمام الادراك انه ما من شيء يستطيع ان يخضع هذا الشعب ، لا السجن ولا التعذيب ولا الموت . لقد نذروا انفسهم للنضال حتى النهاية – نهاية الحكم الاجنبي والاحتلال .

ان اخطر المظاهر وأقصرها نظراً في آراء الفرنسيين حول الجزائر هو ذلك الجهل ، حقيقياً كان ام مصطنعاً ، الذي يظهره كثير من السياسيين الفرنسيين لطبيعة موقف الوطنيين الجزائريين

الحقيقية . « اعرف عدوك » انها لحكمة قديمة صحيحة ولكن الفرنسيين يبدون وكأنهم قد رموا بها عرض الحائط . فاذا ما قيل لهم ان الثوار ليسوا شيوعيين اغتنموا ذلك للبرهنة على انهم ليسوا سوى عصابة غير منظمة وغير ممثلة للشعب الذي لا يريد الا العيش بسلام تحت الحكم الفرنسي والتنعم بفوائد ما يسميه الفرنسيون « برسالة نشر الحضارة » ....

أما ان تكون القومية قوة بحد ذاتها مستقلة عن الشيوعية فهذا ما لا يسلم به اولئك الذين ينظرون الى الوراء، الى عهد الاستعمار الذهبي في القرن التاسع عشر. فلو كان للجزائريين صبغةشيوعية لما كانوا يتمتعون بمساعدة السلطان وبو رقيبة المعنوية والمادية . واذا امكن التوصل الى حل عن طريق المفاوضات فان كل الزاوية الغربية من شمالي افريقيا ستنضم انضماماً كاملا وفعالا الى الغرب وتقيم لها مع فرنسا اوثق العلاقات السياسية والاقتصادية . ان الوصول الى مثل هذا الحل لا يقتضي تغيير الحاكم والحكومة في مدينة الجزائر وحسب بل تغييراً في نفسية باريس وتفكيرها . يجب ان تتصرف فرنسا وهي تنظر الى مستقبلها وليس فقط الى ماضيها .

٣ . حلف بغداد

قدمت الى بغداد اثر انتهائي من زيـــارة قبرص فاعتراني شعور بالفرح بعد ما كنت قد شهدته في تلك الجزيرة من آمال خائبة. لقد سررت أولاً لرؤية العراقيين منهمكين في تحضير افتتاح « اسبوع الاعمار » حيث سيظهرون للمـــلأ آخر منجزاتهم الاقتصادية والاجتماعية . وثانياً لعلمي ان الولايات المتحدة قد اعلنت مؤخرا — اثر مؤتمر برمودا — أنها سوف تنضم ، اذا دعيت ، الى اللجنة العسكرية لحلف بغداد .

لقد اعرب لي رئيس وزراء تركيا السيد مندريس قبيـــل مؤتمر برمودا عن انه اذا تمنى شيئا من هذا المؤتمر فهو ان تنضم اميركا الى اللجنة العسكرية لحلف بغداد على الاقل، ان لم يكن الى الحلف كله . وقد انتهى الى القول بان افضل طريقة لمساعدة اعدائنا ومناصريهم في الشرق الاوسط هي ان تظل الولايات المتحدة تعامل البلدان التي كانت متفقة مع بريطانيا بريبة وتحفظ وكأنها شيء محرّم .

لقد كان مشروع ايزنهاور مشروعاً حسناً ولكنه لم يذهب

بعيداً . فلكي يكون لهذا المشروع معنى حقيقي فعـــال يجب ان يدعم بانضمام الولايات المتحدة الى الحلف الوحيد المضاد للشيوعية بين دول الشرق الاوسط الذي هو حلف بغداد والذي تشترك فيه كل من تركيا والعراق وايران وبريطانيا ..

ولم يكن رئيس جمهورية لبنان، السيد شمعون ، اقل توكيداً في الاراء التي اعرب لي عنها في بيروت وانا في طريقي الى بغداد. فقد قال ان شر ما يمكن ان تفعله اميركا وبريطانيا للشعب كالشعب اللبناني هو ان تظلا تعملان في الشرق الاوسط ، كلاً على حدة ، وتظهران ابداً بمظهر المتنافستين والمتحاسدتين والمختلفتين فيما بينهما . لقد صرح لي علناً أن لبنان ، بالرغم من عدم انضمامه الى حلف بغداد ، متضامن مع الغرب في الكفاح العالمي ضد الشيوعية .

وهذا الصديق الصلب للغرب ، الذي يبـــدو وكأنه نجم سينمائي والذي يتكلم كرجل دولة ويتمتع بزعامة الفئة المسيحية في لبنان ، قد اظهر عام ١٩٥٦ اثناء ازمة السويس شجاعة فائقة في تفادي حالة كانت تهدد بان تصبح في غير مصلحة بريطانيـــا والغرب : كان الذعر قد استولى على الحكومة ورفعت اليـــه بوصفه رئيساً للجمهورية طلباً بان يقطع لبنان علاقاته مع بريطانيا وفرنسا وينتهج سياسة معاكسة للغرب .

فعمل شمعون بلا تردد : لقد سرّح حكومته وعين رئيس وزارة جديد يستطيع ان يعتمد عليه في متابعة السياسة الغربية التي اختطها هو .

وهكذا كان لشمعون الحق في انتقادنا وفي القول انه اذا كانت اميركا وبريطانيا تريدان فعلاً مساعدته على الاحتفاظ بلبنان سائراً في ركاب الغرب فيتوجب عليهما قبل كل شيء ان تكفا عن تنازعهما وتظهرا باعمالهما انهما تعملان سوية على مساعدة الذين يكافحون الشيوعية في الشرق الاوسط .

اما ولي العهد العراقي فقد دعاني الى زيارته عندما مرّ بلندن عائداً من زيارته للولايات المتحدة في شباط سنة ١٩٥٧ . لقد كان مفعماً بالأسف بل وبالسخط من جراء جواب اميركا على طلبه المساعدة العسكرية لحساب الدول الاعضاء في حلف بغداد. لقد قيل له انه يجب على اميركا ان تحافظ على التوازن في تسليم السلاح ليس بين اسرائيل وجيرانها العرب وحسب بل بين العرب انفسهم ايضاً . فسألني قائلاً : هل سوف يعامَل العراق ، وهو الحليف الحميم للغرب ، هو وسوريا على قدم المساواة وهي حليفة روسيا الحميمة ؟ فاجبت على سؤاله بالنفي ، ولكن نفيي لم يبدُ مقنعاً البتة .

لقد تصدع الحلف اثناء ازمة السويس في تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ . فسئلت بريطانيا ان لا تحضر اجتماعات لجان الحلف ، كما وان باكستان كانت على وشك الخروج اما من الكومنولث واما من الحلف واما من الاثنين معاً .

ثم حدث التغير مع انعقاد مؤتمر برمودا . فصادف وصولي الى بغداد يوم اعلان الرئيس ايزنهاور قرار اميركا بالانضمام الى اللجنة العسكرية لحلف بغداد . وكان نـوري السعيد عصر ذلك

النهار مشرق الوجه مبتهجاً .

وكذلك كان ولي العهد مسروراً منشرحاً . امـا السفيران البريطاني والاميركي فكانا وكأنهما رجلان قد تخلصا بغتـة من حمل ثقيل . كان قد زايلهما الخمول الذي نتج عن الخيبة التي لقياها وهما يحاولان اقناع واشنطون بان خـير وسيلة لأرباك اعدائنا هي استرجاع اصدقائنا ، فقداظهر بلاغ برمودا فجأةان اميركا وبريطانيا قد اصبحتا اخيراً تابعتان سويةفي نفس الفريق ، ولم تعودا تضربان الكرة كل الى جهة ، على فرحة من الروس في مقاعد المتفرجين .

وهنالك مثل آخر على تغير الشعور العام المفاجىء وهو الذي طرأ يوم افتتاح « اسبوع الاعمار » العراقي . وكان المشروع الذي اختير ليكون اول ما يجري تدشينه جسراً فوق دجلة بناه المهندسون الانكليز . فأعلن الملك فيصل افتتاح الجسر وراح يشق طريقه بصعوبة وسط جماهير محتشدة من البغداديين الفرحين المهنئين .

ولكن ، كما ذكرني بذلك احد اصدقائي من وفد العراق الى الامم المتحدة السيد عوني خالدي والذي يشغل الان منصب السكرتير العام لحلف بغداد ، ان مثل هذا الحلف لا يمكن ان يحيا الى الابد على مساعدة واحدة من اميركا . يجب ان تكون هذه المساعدة مستمرة ، ومن الجلي ان المتابعة التي يفكر فيها هي ان تصبح الولايات المتحدة عضواً كاملا في الحلف . انها الان عضو في اللجان الثلاث الرئيسية للحلف : لجنة مقاومـة

المبادىء الهدامة واللجنة الاقتصادية واللجنة العسكرية .

اني اعرف جيداً الاسباب التي قدمتها واشنطون لتبرير عدم انضمامها الى الحلف انضماماً تاماً. وتختلف هذه الاسباب باختلاف الدوائر الحكومية التي يتفق ان تكون قد قدّمت خلاصات عن الموقف السياسي ، كل في ما يتعلق باختصاصها ، الى مستر دالس في ذلك النهار . فاحيانا يكون المكتب الاسرائيلي قد أبلغ وزير الخارجية أن اسرائيل قد تطلب تعويضاً قوامه كفالة حدودها الحالية . واحياناً يكون المكتب السعودي قد أبلغ أن التصالح بين الملك سعود وجيرانه الهاشميين في الشمال ليس من الكفاية بحيث يسمح بتقبل اتفاق عراقي اميركي بارتياح . واحيانا ايضاً يكون صوت وزارة الحربية الاميركية قد ارتفع ليقول بانه يجب على الولايات المتحدة ان لا تزيد التزاماتها العسكرية .

لقد اشاد لي السيد عوني خالدي ورفاقه في سكرتيرية حلف بغداد بأعمال الحلف الاقتصادية . لقد اغتبطوا لتصريح ادلت به بعثة ريشاردز اثناء زيارتها لانقره ومؤداه ان مساعدة الولايات المتحدة المالية لن تقدّم الى اعضاء الحلف كل على حدة فحسب بل ايضاً الى الحلف ككل لتمويل مشاريع الانماء المشتركة . فقد كانت السكرتيرية في حاجة مقلقة الى الاموال لكي تتمكن من نقل احد المشاريع الاقتصادية الاساسية من حيز التصميم الى حيز التحقيق . والتصاميم على الورق لا تبقي الحلف على قيد الحياة . فان الرأي العام في الدول الاعضاء ليتطلب النتائج

الملموسة للعضوية وإلا تهدم صرح الحلف واندثر. ان بناء خط حديدي يصل بين تركيا وايران ، او شق طريق بين ايران وباكستان يشكلان مشروعين جديرين بان يخدما الاهداف الاقتصادية والاستراتيجية . الا ان مشاريع كهذه لا يمكن ان يباشر بها اعتماداً على المساهمات الضئيلة التي يقدمها حالياً اعضاء الحلف . فان بريطانيا مثلاً لا تسهم الا بمبلغ ٢٥٠ الف ليرة استرلينية سنوياً للاعمال الاقتصادية ، وهو نصف ما تدفعه لامارات الخليج الفارسي . ان المال المتوفر من اصل الملايين الاثني عشر التي كانت تخصصها بريطانيا سابقاً للاردن يمكن الان استعماله في مشاريع المواصلات التابعة للجنة حلف بغداد الاقتصادية ، وذلك الى جانب الاموال التي ستدفعها اميركا لهذا الغرض . ثم ان العراق وايران يمكنهما ان يسهما عندئذ بمبالغ محترمة من عائدات النفط .

وفي غمرة الحماس الناشيء عن تقرير الولايات المتحدة توثيق انضمامها الى حلف بغداد ظن العراقيون ان الوقت قد حان لتوسيع عضوية الحلف عن طريق ادخال اعضاء جدد . فقالوا ان سعود كف عن معارضته منذ ان اقنعه شاه ايران وولي عهد العراق بان هذا الحلف انما يشكل افضل حاجز في وجه التسرب الشيوعي وانه ليس سبيلاً لاعادة الهاشميين الى الحجاز ؛ اما لبنان وتونس ومراكش فقد تم توجيهها لجهة الغرب ؛ فلم يبق من المناهضين الا مصر وسوريا ....

قد يكون كل هذا صحيحاً . فقد حصل في العالم العربي

خلال الشهور الستة الاخيرة تغيير واعادة تنظيم في الصفوف شديداً الاهمية . الا انني لا ازال اعتقد ، استناداً الى حديثي مع نوري السعيد ، وشاه ايران ، ومندريس ، انه من الاجدى لحلف بغداد في الوقت الحاضر ان يتقوى لا أن يتسع ...

٤. مشاريع الانماء في العراق

ان البلاد الاكثر اثارة للحماس والامل التي لقيتها في الشرق الاوسط هي العراق . والامر الذي اثار دهشي واعجابي اكثر ، يكون هو ذلك المثل الذي تضربه العراق لجيرانها العرب عن كيفية الاستفادة من عائدات النفط بدلا من تبذيرها .

إن العراق لجاهد في البرهنة على ان عائدات النفط في الشرق الاوسط ليست كلها مستخدمة لشراء سيارات الكاديلاك لحساب الباشاوات الاثرياء . لقد اوضح ذلك الرئيس نوري السعيد في الخطاب الافتتاحي « لاسبوع الاعمار » نهار ٢٢ اذار ١٩٥٧ اذ قال : « ان الذهب المستخرج من جوف الارض لهو ملك للشعب ، انه من الشعب وللشعب » . والبرهان هو ان ٧٠٪ من عائدات النفط العراقي توظف في الانماء . وسوف ينفق العراق في مشروع السنوات الخمس الذي بدأ عام ١٩٥٥ مبلغ ٣٠٠ مليون جنيه استرليني .

ان ثمة ثورة صناعية واجتماعية تحدث في هذا البلد النامي ؛ فقد ذكرني ما يحصل الان في العراق بتلك القصص التي قرأتها

فيما مضى عن الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر . فهنالك في بغداد يخالج المرء شعور بأنه امام مدينة نمت نمواً سريعاً جداً، ولكن ليس هذا كل ما في الامر . ان هناك فخر البناء والانجاز. ان ما يجنى من الاموال لا يجري إنفاقه خارجاً او يبذر في سد حاجات مؤقتة او في توزيع اعانات ضئيلة . انه يزرع ثانية في ارض العراق او في صناعته . انه يستخدم لبلورة وتغذية روح المغامرة والبنـــاء عند الشعب . انه يوظف في امة فتية ، على يد ملك متمتع بشعبية يستحقها . لقد اجتمعت بالملك فيصل لاول مرة ، كما التقيت بابن عمه الحسين ملك الاردن ، قبيل مغادرته كلية هارو راجعاً الى العراق لتتويجه . فعندما التقيته من جديد في آذار ١٩٥٧ ، كان لا يزال يحتفظ بشيء من مظهر الطلاب ، كأنه يفسح المجال للذين يكبرونه سنا ، كولي العهد مثلا ، ان يتكلموا قبله . ولكن عندما تكلم كان كلامه متعقلا صريحاً مرحاً. ولقد لفت تواضعه نظري اكثر ما لفته . كنت اتوقع ان أجده في قصر فخم ، محاطاً بحاشية شرقية براقة وحرس قوي ، فعائدات النفط تسمح بذلك كل السماح . ولكن لا . فقد رأيته يعيش مع خاله في دارة تقع في ضواحي بغداد لا يزيد عدد غرفها على الدزينة بما فيه بهو الاستقبال المعتدل الاتساع حيث جلسنا وشربنا القهوة التركية . وسوف يأتي يوم ينتقل فيه هذا الملك الشاب الجذاب الى قصر اكثر محافظة على تقاليد الملوك العرب . ولكن ارادته هي ان يُسكن مشروعُ الاعمار قبل ذلك عدداً اكبر من رعاياه.

ان الحماسة التي استقبل بها الملك فيصل كلما ظهر للجماهير اثناء « اسبوع الاعمار » لتشهد بان مهارته في تقديم بعض الامور على سواها وعطفه على حاجات بلاده لا يضيعان سدى لدى الشعب،

... لا يمر اسبوع تقريباً حتى يدشن سد جديد او طريق جديدة . ولن يمر عشرون عاماً حتى تكون بغداد والبصرة والموصل قد بنيت من جديد. لقد تم في السنتين الاخيرتين تشييد ما يزيد على مئة مدرسة جديدة، كما انتهى بناء عشرة مستشفيات، وهنالك على قيد البنـاء مركز صحي سوف يبدو وكأنه قصر الامم المتحدة مصغراً. لقد بدأت اكواخ اللبن القذرة في القرى والارياف تفسح الطريق امام المساكن الحديثة المشيدة بالحجارة . ان اكثر من ٨٠٪ من المنازل يملكها ساكنوها . والحكومة تشجع اسلوب نشر روح الرأسمالية هذا . فيستطيع رجل يتقاضى شهرياً مبلغ عشر ليرات استرلينية فقط ان يشتري له بيتاً خلال عشر سنوات بالتقسيط . هذا وان مراكز الطاقة المستمدة من مياه الانهر الغزيرة اخذت تفرخ كنبات الفطر ، والصناعات الجديدة آخذة في الانتشار عبر مسالك الجمال في الصحراء .

ان المواصلات الهاتفية والبريدية في انتشار سريع ، فيوجد حالياً في كل قرية مركز بريدي وخط هاتفي يصلها ببغداد . والى هذا فان العراق يتباهى بأنه يملك اول محطة للتلفزيون في الشرق الاوسط ، ولقد اصبح الالتقاط بعد تركيب التجهيزات الحديثة ، افضل منه في كثير من منـاطق بريطانيا وامير كا .

والسيارات في المدينة السريعة الازدهار ، بغداد ، تندفع وتهدر في الشوارع القذرة العاجة بالاهلين ؛ والازدحام في المنطقة التجارية هو اسوأ منه في البيكاديللي بلندن .

والامران الاكثر استعجالا وإلحاحاً من كل إنماء هما ضبط الفيضانات وتنظيم الري . ويبدو غريباً ان تكون المياه في بلد صحراوي لعنة بقدر ما هي حاجة ماسة . فان مياه دجلة عندما يكون في أوج تدفقه تفوق المياه المنصبة عند شلالات نياغارا نفسها . لقد ظلت المياه الموحلة الجارفة لنهري دجلة والفرات عند فيضانهما اثناء ذوبان الثلوج على جبال طوروس في تركيا حتى سنة ١٩٥٧ تجرف آلاف المنازل والمزارع والقرى ، واحيانا ضواحي كاملة من بغداد نفسها .

وللحؤول دون ذلك ، وللاحتفاظ بالمياه للري ايضاً ، شيدت سدود هائلة واميال عديدة من الاقنية ، ولا يزال يشيد منها حتى الان .

هنالك مجرى يمتد على محاذاة قسم من الاميال الاربعة والاربعين للقناة الحديثة الموصلة بين أحد السدود والبحيرة ، ويشكل هذا المجرى ظاهرة عادية لا معنى لها بالنسبة للناظر العابر . الا أنه ، حسب قول الخبراء ، قد حفر قبل دخول الاسلام الى العراق ؛ في القرن السابع بعد المسيح ؛ ولا ريب في ان الغاية منه كانت انذاك هي نفسها

الغاية الحاليـــة اي ضبط فيضان دجلة وريّ الصحراء . ولكن
المجهود كان يفوق طاقة القدماء وتهدم المجرى قبل بلوغ البحيرة.
اما العراق الحديث فقد نجح حيث اخفق الاجداد .

٥. المملكة العربية السعودية

لقد كانت حركة الذهاب والاياب المركزة على الملك سعود اثناء الشهور الثلاثة التي سبقت زيارتي للمملكة العربية السعودية ناشطة الى حد انها اصبحت تشير بحد ذاتها الى ان حركات ذات صدى عالمي على اهبـــة الانطلاق . فكان هنالك قبل كل شيء زيارة الملك للولايات المتحدة واجتماعه هناك بولي عهد العراق ، وكان قد سبق ذلك زيارة الملك فيصل للرياض ثم زيارة شاه ايران ورئيس جمهورية لبنان السيد كميل شمعون لها ايضاً : واخيراً وليس آخراً من حيث الاهميـــة كان هنالك زيارة بعثة ريتشاردز للملك سعود لاجراء مباحثـــات حول تطبيق مبدأ ايزنهاور .

وتصديقاً لتلك التقديرات والتخمينات فقد قال لي الرئيس شمعون في بيروت ان جلالة الملك سعود ، تفادياً لاخطار مجاملة عبد الناصر لروسيا ، بدأ يحاول إضعاف علاقاته مع مصر . اما رأي ولي عهد العراق فكان ان الملك سعود انما يولي مصر من المداراة ما يقيه هجمات اذاعة القاهرة التي لا يزال يخشاها ، ولا

عجب من ذلك في بلد موغل في تقاليد الحكم الديني ، وحيث يوجد طرفا الغني والفقير كما كانت الحالة في فرنسا او روسيا قبل ثورتيهما . وكذلك ايضاً كان رأي شاه ايران والرئيس ميرزا ان السعوديين سوف يغيرون اتجاههم اذا ما تأزمت الحالة في سوريا . وقد اتفقوا جميعاً على ان الموقف السعودي تجاه حلف بغداد انما هو الحياد المؤيد .

وهكذا كانت آمالي كبيرة عندما انطلقت لمقابلة الملك من الفندق الحديث الفخم الذي انزلت فيه كضيف على جلالته. كنت قد سمعت كثيراً من الروايات عن الترحيب الذي يغدقه السعوديون على اولئك الذين يحظون بالنزول ضيوفاً على الملك ، ولكن لم أكن بعد مستعداً للمعاملة التي لاقيتها . فالسيارات والطائرات والفنادق ، والطعام — كل شيء في الواقع باستثناء الكحول المحرمة على الجميع — كانت تعرض عند ادنى اشارة ومن غير اشارة. لقد استؤجرت طائرة تابعة لشركة الارامكو (او صودرت) لتقلني من الظهران الى الرياض. وفي الرياض وضعت تحت تصرفي اربع سيارات كاديلاك جديدة فخمة مكيفة الهواء، كي أستخدم كل يوم واحدة اثناء الايام الاربعة التي قضيتها هناك. ولقد اقام الملك على شرفي مأدبة عشاء كانت ابعد ما تكون عن الطراز الشرقي ، مأدبة مؤلفة من اللحوم الباردة والحلويات المعلبة قضيت كلها تقريباً في الاستماع الى سكرتير القصر يتلو نسخة من نشرة الانباء الاذاعية الاخيرة بالعربية .

ولم اجد ، يوم اردت السفر الى جدة، اية طائرة مسافرة الى

تلك المدينة ، ولكن احد ابناء الملك كان مسافراً الى مكة ، فطرت معه كضيف عليـــه في طائرة خاصة ، ـ وقد شاءت الظروف ان اقضي معظم الوقت اعتني بابنه الطفل اذ ان الوالد كان قداستولى عليه النــوم بسبب من صيامه فقد كنا في شهر رمضان،

لم تقصر الضيافة الملكية الا مرة واحدة وذلك في اليوم الاخير في جدة . كنت قد دعيت الى عمان . وكان الاردن في اضطراب لكن السلطات قد فتحت مطار عمان من جديد ويبدو انها سوف تعيد اقفاله ، فكان من الضروري اذن ان اسافر ذلك النهـــار بالذات . ان الظفر بطائرات في العربية السعودية مجازفة خطيرة ، حتى بالنسبة لضيف الملك . اجل ، ان مثل هذا الشخص لا يخشى ان يحتجز طائرته في اخر لحظة احد الامراء السعوديين ، ولكن هنالك خطر الوقت : ليس هنالك احد يعرف الوقت في العربية السعودية .او بالاحرى ليس هنالك من يعرف عندما يذكر الوقت ما اذا كان ذلك حسب التوقيت السعودي ، او توقيت الارامكو ، او توقيت القاهرة . يجب ان تضبط ساعتك عند غروب الشمس فتجعلها تشير الى منتصف الليل . واذا نسيت فانك تقع في مأزق لانه ما من احد يستطيع ان يتذكر كم كانت الساعة البارحة عندما غابت الشمس . وكل ذلك مما يفسر لماذا ، عندما كانت طائرتي جاهرة للاقلاع الى عمان ، لم ينقصنا شيء سوى الطيار . كان قد نسي متى غابت الشمس فلم يستطع ضبط منبهه.

لم تقع لي اية مشكلة كهذه اثناء زيارتي للملك سعود . فقد هتم بذلك ترجماني البدوي رئيس البروتوكول الملكي . لقد نظم

نفسه ونظمني جيدا حسب مواعيد الاجتماعات . وقد حصلت هذه في واحد من اولئك القصور الرخامية المضاءة بالنيون بشكل مبتذل ، والتي تكثر في الرياض كبرهان اساسي على غنى تلك المملكة التي كانت قبل الحرب الكبرى مؤلفة من اراض صحراوية مدقعة الفقر وقبائل عربية رحل .

ان ما اثار دهشتي حول الملك سعود هو ذلك التباين الذين بينه وبين ابتذالية قصوره . انه اقل الملوك ابتذالية . فقد بدا لي ، سواء في تصرفاته ام في كلامه ، رجلاً بسيطاً ، متواضعاً ، صريحاً ومنشرحاً . لقد قيل لي في انكلترة إنني سوف اجد الملك ، اذا سُمح لي بمشاهدته ، محاطاً بمستشارين مناوئين للغرب يحتبسونه وهم اما ان يتكلموا بدلا منه واما ان يعملوا على التأكد من انه يتكلم بما يريدون. وفي الواقع ، لقد كنا وحدنا ماعدا الترجمان الذي لم ينقل لي اي شيء يبدو مناوئاً للغرب ولو من بعيد .

لقد اتت اقوال الملك كلها مؤكدة للاعتقاد الذي استخلصته من الشاه ومن نوري السعيد ومن شمعون بان المملكة العربية السعودية قد غيرت اتجاهها وقطعت ارتباطها بمصر . ولا شك في ان مبدأ ايزنهاور من جهة والمعالجة الحكيمة التي بذلها الشاه وولي عهد العراق من جهة اخرى قد لعبا دوراً هاماً في انجاز هذا التطور :

لقد كان واضحاً وضوح النهار في حديث الملك سعود انه يبذل كل ما أوتي من قدرة وكل ما يملك من مال ونفوذ في سبيل توثيق عرى « رابطة » الملوك العرب ، وفي سبيل توطيد

علاقاته بالملكين الهاشميين في العراق والاردن بالرغم من الماضي والتنافس اللذين شهدهما. كانت معركة الملـــوك والعسكريين قد احتدمت وليس من احد يدرك اهمية الظفر فيها بقدر الحليف السابق لعبد الناصر ، عاهل المملكة العربية السعودية ...

وكان الملك خلال الساعات الطويلة التي جمعتنا معاً يتحدث بصراحة وبطريقة جد مباشرة مما كان خليقاً بأن يبدو فظاً لو لم يكن فيه من التواضع والدعابة ما يخفف من حدته وقساوته . ان اهم ما ورد في كلامه هو ذلك العداء العظيم الذي يضمره للشيوعية. ولم يأت على ذكر اسرائيل الا للاعراب عن قلقه ، باعتباره القيم على اماكن الاسلام المقدسة ، من ان اسرائيـــل قد تستفيد من مركزها في خليج العقبة كي تهدد او تعترض طريق الحجاج القادمين من البلدان الشمالية عبر الاردن .

لقد شجعتني بساطة الرجل ، التي اتضحت لي منذ التمهيدات للمقابلة الاولى ، على ان اطرح منذ البدء سؤالاً مباشراً . فسألته كيف يفسر عبارته « الحياد الفعال » . وقد حصلت على جواب مباشر ايضاً اذ قال لي : « ان « الحياد الفعال » او « الحيـــاد الايجابي » كما يسميه البعض معناه ان لا نتورط في اي معسكر من المعسكرين ونحارب الشيوعية محاربة فعالة بالتعاون التام مع الولايات المتحدة ومع جميع الذين يريدون مخلصين ان يكونوا اصدقاء لنا . »

فسألته ايضاً : « كيف تطبقون هذا المبدأ اذا ما تورط الشرق الاوسط في حرب عالمية جديدة ؟ » فحصلت على جواب مباشر

آخر : « اذا وقعت مثل هــذا الحرب فسوف تكون جميع امكانيات المملكة العربية السعودية وتسهيلاتها المادية تحت تصرف الغرب المطلق . » مما يوحي بأن مفهوم الملك سعود للحياد الفعال هو فعــال اكثر منه محايداً . وقد توصل جلالته الى ان يقول لي بكثير من التأكيد انه قد صرح لاصدقائه العرب بأنه لن يمد يد المساعدة لاية دولة — حتى ولو كانت العدو الاكبر لاسرائيل — عالقة في شرك الشيوعية . وقد كان ايضاً شديد القلق على سوريا وعلى الحالة التي خلقها المتطرفون كالسراج وصحبه ... وهو يرى ان الرئيس القوتلي ليس شيوعياً وهو يساعده على الصمود في وجه الضغط الشيوعي. ولكن السراج وسيطرته على الجيش، والحوراني وبكداش وسيطرتهما على المجلس السوري قد جعلوا من الرئيس سجينــاً وارغموه على قبول حكومة مستعدة لتنفيذ اوامرهم واوامر موسكو... !

واذ سألت الملك ما اذا كانت ملعقة عبد الناصر من الطول بحيث يستطيع ان يتعشى مع الشيطان السوفياتي ... اجابني بكلمة واحدة لم اجد نفسي محتاجاً الى ترجمتها مع جهلي التام للعربية ، كانت تلك الكلمة : « لا » وقد لفظت بتأكيد جدير بأن يفخر به مولوتوف في لحظات جبروته . لقد اعترض على عبد الناصر في تأميمه لقناة السويس . فقال ان ذلك العمل كان « متسرعاً وغير حكيم » ، ولكنه كان عملاً يمثل طريقة عبد الناصر اتم تمثيل. ثم اردف بعــد ذلك يقول : « ولهــذا السبب بالذات كان من واجب بريطانيا ان تظهر حكمة ودراية في معاملتهــا

لمصر كي تحتفظ بها خارج المعسكر الشيوعي . »

وتحول الملك بعد ذلك الى بحث الموقف في الاردن . لم يكن لديه الا اشياء مليئة بالعطف يقولها عن الملك حسين الذي اقال قبل يوم واحد سليمان النابلسي من رئاسة الوزارة وعلي ابو نوار من قيادة الجيش ، وبدأ يخطو الخطوات اللازمة لتخليص عرشه وبلاده من المؤامرات . ومما يثير الدهش نوعاً ما تصريح الملك لي بانه قد نصح الملك حسين بألا يلغي المعاهدة مع بريطانيا ولكن النابلسي رئيس الوزراء آنذاك ، قد ربح الجولة . والان ها هو يضع جيشه تحت تصرف الملك حسين ، فالقوات السعودية مستعدة لخدمة جاره الملكي ...

وقال الملك ايضاً بهذا الصدد انه قد نصح حكام الكويت والبحرين وقطر بان يحافظوا على علاقات متينة مع بريطانيا في سبيل سلامتهم الشخصية . لان دويلاتهم تضيع من ايديهم اذا هم اصغوا الى اوامر القومية العمياء . لقد كان هو صديقاً لهؤلاء الحكام ولكن صداقته وحدها ليست كافية لتخليصهم من الاخطار المحدقة بهم ...

من السهل ايجاد تفسير فاجع لمحافظة الملك سعود على تعلقه ببريطانيا . ان لعبة « اقتناص السبب » لهي لعبة شعبية دارجة بين السياسيين والصحفيين الغربيين الذين لا يكلفون انفسهم الذهاب الى تلك البلاد ومشاهدتها بأم عينهم . بامكاني ان اقول ، استناداً الى ما شهدته وسمعته من الملك سعود عينه ، انه يتوق من كل قلبه الى سد الثغرة التي شقت بينه وبين بريطانيا اثر النزاع على

البريمي ، والى اعادة العـلاقات الى اسس الصداقة والثقة التي كانت راسخة ايام والده ، ابن سعود .

وتناقشنا في كل هذا مطولاً . وكنا ، من اي طرف امسكنا بالعلاقات البريطانية السعودية ، ننتهي ابداً الى البريمي . لقـد اقترحت ان تستأنف العلاقات الدبلوماسية . فكان الجواب : « لن يكون ذلك قبل ان تأتوا بتغيير ايجابي في موقفـكم من البريمي . » فأشرت عندئذ الى ان تلك العلاقات قد اوقفت بسبب من ازمة السويس لا البريمي ؛ وها قد انسحبت بريطانيا من السويس. واذا كان من حل لمشكلة البريمي فيجب ان يكـون لدينا دبلوماسيون لحلها . وقلت ايضاً اننا لا نستطيع التوصل الى اتفاق مع رجل لا يريد التكلم معنا الخ ...

وقد حصلت ابداً على الجواب ذاته : « لقد قدم السعوديون اقتراحات عديدة حول البريمي ولـكن بريطانيا كانت ابداً اما ترفضها واما ترفض الاجابة عنها اطلاقاً . »

واياً ما كان فالسياسة السعودية لا تزال تتأثر بهؤلاء المستشارين الاقوياء المحيطين بالملك سعود الذين لا يريدون الخير لا لبريطانيا ولا للغرب . ويقال ان ولي العهد الامير فيصل هو من هذه الفئة وانه معارض شديد للعراق ولحلف بغداد . وانا شخصياً لست استطيع ضميرياً ان اعطي رأياً حول هذا اذ انني لم امكث معه الا وقتاً قصيراً جداً . لم يكن في صحة جيدة ؛ وقد قيل لي ايضاً انه متوعك الصحة في اكثر الاحيـان . لقد لقيته مختلفاً تمام الاختلاف عن اخيه . كان حديثه يخلو من الدعابة وكان كثير

الشك بكل ما يفعله الغرب ؛ وليس له شيء من تصرفات الملك اللطيفة اللبقة مع اني استطيع ان اقــول انه ، من حيث القامة والوجه ، اجمل رجل رأيته في حياتي .

اما الرجل الذي استطيع التصريح بمناوأته المتحمسة للغرب بارتياح تام فهو وزير الخارجية الشيخ السوري يوسف ياسين ؛ ومن ادعى الامور الى الاطمئنــــان في الرياض الحد الذي بلغه اقصاء الشيخ يوسف ياسين عن كل محادثاتي مع الملك وولي العهد؛ لقد كان له من النفوذ في الماضي القريب ما يكفي حتما لتدخله في كل ما يمت الى زيارتي بصلة . ولقــد حاول ذلك جاهداً كما تبينت من خلال حديث عنيف جرى بينه وبين ولي العهد اثناء العشاء الملكي ، ولكن دون جدوى. لقدفقد الشيخ ياسين حظوته لدى الملك – مؤقتاً على الاقــل– فلم يعد لنصيحته ، كمستشار يميل الى مصر وسوريا ، اي استحسان لدى الملك سعود.

٦ . الاردن وسوريا

لقد صعب عليّ التصديق ، وانا أمر عبر وادي الاردن الجليل ، ان هذا البلد الجميل انما يعيش في قلق بسبب من اضطرابات سياسية مريعة. فبعد الصحارى القاحلة في الكويت والسعودية بدت هذه الارض خضراء وعطوفة ومسالمة الى حد انه أصبح يلزمني شيء من اجهاد الخيال للتسليم بان الدولة الاردنية تقاتل ، هناك في المدن وراء التلال الربيعية والاودية ، في سبيل حياتها . كنا في عطلة اسبوع عيد الفصح عندما بلغت الاردن ولقيت ، بدلا من الصحراء المالحة القاحلة التي كنت اتوقع ، ريفاً ضاحكاً مشعشعاً بالالوان وأودية ، وهضاباً مفروشة بزهر الحقول ...

ومع ذلك فقد اندلعت ، وراء هذا الجمال الطبيعي وذلك الامان ، معركة الملك حسين في سبيل عرشه . لقد ساير الملك حسين سياسة مصر وسوريا مدة اشهر عديدة مريرة . ولقد فسخ المعاهدة مع بريطانيا ورفض كل مساعدة من ابن عمه الهاشمي

فيصل ملك العراق . لقد ندد بحلف بغداد بحماس يضاهي حماس عبد الناصر. نفسه لقـــد قبل طائعاً ان يكون جيشه في نظام قيادة موحدة مع مصر وسوريا تحت القيادة المصرية العليا .

ثم ها ان الملك ، قبل وصولي الى عمان بايام قليلة ، يضرب عن كل ذلك . لقد أقال دفعة واحدة ، رئيس وزرائه سليمان النابلسي ، واعفى الجنرال الطموح علي ابو نوار من منصب رئيس الاركان العامة ...

انه لمن الصعب أن نحدد بالضبط الوقت الذي وقف فيه الملك على حقيقة الامر في داخل البلاد . ولكن اغلب الظن ان ذلك قد حصل ابان اعفـــائه النابلسي وابو نوار من منصبهما . اما الامر اليقين فهو ان الملك حسين كان قد قرر اختيار الوقت الذي يتأكد فيه ان الملك سعود سوف يدعمه .

لم يكن قد مر على المعركة ، عندما قابلت الملك ، الا بضعة ايام فقط ؛ فتأثرت كثيراً بما رأيت . لا يكفي ان اقول انه قد تطور كثيراً منذ التقيتـــه اول مرة في لندن ، فهو قد تغير تغيراً كاملاً . لقد كان ما لفت نظري في الماضي هو قصر قامته اما الان فالعمق والثبات في صوته هما اللذان يسترعيان الانتباه ؛ وبصرف النظر عن هذا فقد اعتراني الدهش لتلك الطريقة الهادئة الباردة المتحسبة التي بها يواجه ذلك التحدي الخطير ، الطريقة التي ذكر فيهـــا ان علي ابو نوار ، الذي فر الى سوريا ، كان يتآمر لاغتياله . لقد تحول الملك الفتى فجأة الى رجل. فتخلص ، او كاد ، من الخصوم المقيمين داخل الابواب وهو يتمتع بولاء

الكتائب البدوية المطلقة للصمود بوجه الخصوم في الخارج .

والان ، وانا اكتب هذه السطور بعد مرور ستة اشهر على زيارتي للاردن ، لا تزال المعركة التي بدأت آنذاك محتدمة. وهي على الارجح سوف تستمر حقبة من الزمن بعد . فلعبد الناصر امل قوي بالفوز بحيث انه لن يتخلى عن الامر بسهولة . وله فوق ذلك افضلية رئيسية واحدة على الاقل : انه يعلم جيداً ان سبعين بالمئة من سكان الاردن هم فلسطينيون معظمهم من الضفة الغربية — ، نصفهم تقريباً لاجئون من اسرائيل. فهناك من اصل سكان الاردن المليون ونصف المليون نحو ٦٠٠ الف من اللاجئين . وهؤلاء اللاجئون يشكلون اكثر العناصر قابلية للالتهاب في الشرق الاوسط ، وعبد الناصر يدرك كيف يفيد منهم ، ومثله ايضا الاحزاب الرئيسية — من اشتراكيين وطنيين ، ويساريين وبعثيين وشيوعيين — التي لها بينهم جماعة تستطيع استدعاءها عندما تشاء .

وهكذا فان الميزان يميل سياسياً وعدديا ضد الملك . فان هو حاول الحكم اعتماداً على المجلس اخفق حتما . فليس امامه الا ان يحل المجلس والاحزاب ويعلنها حرباً على خصومه على طريقة رئيس قبلي . لقد تأكد ، في شهر نيسان الماضي ، استحالة الحصول على اكثرية في المجلس تصوت لرئيس وزارة مؤيد لمبدأ ايزنهاور .. ولقد برهنت هذه الاستحالة بحد ذاتها على ان

الحكم المباشر هو وحده الذي يستطيع ان ينجح وسط هذه الانتفاضة الشعبية .

لما كانت الاحزاب من جهة والفلسطينيون من السكان من جهة اخرى معارضين فان نجاح الملك حسين يتوقف على ثلاثة امور : اخلاص الجيش ودعم ابن عمه الهاشمي فيصل ملك العراق له ، ومساعدة القوات التي وضعها الملك سعود تحت تصرفه . ان التنبؤ بسياسات الشرق الاوسط لامر خطر . الا انني اقول ان حظ الملك من النصر في هذه الملابسات ارفع عن المتوسط بقليل . ولكن هذا النجاح يتوقف على افتراضين : الافتراض الاول ان تظل اسرائيل ساكنة ولا تحاول الاستفادة من انشغال الاردن مع اخصامها العرب للاستيلاء على اراض جديدة ، والافتراض الثاني ان لا يرتبك الملك بمساعي اصدقائه واهتمامهم .

ان احتمال بقاء الاسرائيليين ساكنين لكبير جداً . فقد بدا لي ، عندما تحدثت مع بن غوريون في القدس حول الموقف في الاردن ، انه قد ادرك ذلك تمام الادراك .

واتمنى لو كان بوسعي ان استشعر الارتياح نفسه حول الافتراض الثاني . فان طنطنة الدعاية نصف الهستيرية التي ترافق كل محاولة تقوم بها اميركا لمساعدة الملك حسين او للهجوم على سوريا ، قد اورثت الاردنيين المخلصين للغرب توتراً اكثر من ذلك الذي اورثتهم اياه مساعي ألد أعداء

الملك . وكذلك فقـد ألقى زحف الاسطول الاميركي السادس الى شرقي المتوسط إبان اندلاع الازمة ، الرعب في نفوس اقرب المقربين الى الحسين. كما وأن شحنة السلاح الاميركي الصنع المرفقـة بكثير من الدعاية قد وضعت الملك مرة ثانية في مأزق حرج . فهو لا يستطيع ان يظهر بمظهر الألعوبة بيد الاميركيين ولا ان يقبل شحنة سلاح مكتوب عليها « للاستعمال ضد سوريا » . يجب عليه ان يقول انها للدفاع عن الاردن ضد اسرائيل وليس ضد اي مواطن عربي . ان هذا يؤدي حتما الى رد فعل في تل ابيب ؛ فالاسرائيليون سوف يطلبون اذ ذاك ضمانات بان هذه ليست نية الولايات المتحدة ، وعندما تعطي واشنطون مثل هذه الضمانات ، وفقا للبيان الثلاثي ، يتلاشى عندئذ معظم او كل الامتنـان الذي يكون السلاح قد استحقه للولايات المتحدة .

واياً ما كان حسن نية سياسة واشنطون تجاه الملك حسين فان قصة المساعدة الاميركية للاردن خلال الشهور الخمسة او الستة الاخيرة قد خدمت اعداءنا خدمة جمة . لقـد اعادت الى اذهان العرب ذكريات تدبير الحملة الانكليزية الفرنسية على مصر ومختلف تبريراتها . وبصرف النظر عن اذاعة القاهرة ودمشق (وموسكو) فان عبدالناصر نفسه قد افاد من هذه الفرصة ليصف المساعدة الاميركية بانها انما تهدف الى محو القومية العربية .

لقد ادى هذا بدوره الى جعل اعز اصدقائنا يهرعون الى دمشق لتطمين اخوانهم العرب، وشعر الملك سعود بانه من حسن السياسة ان يقصد الى سوريا ويؤكـد للرئيس القوتلي انه لن يؤيد استخـدام القوة ، وقد رأى العراق كذلك ان من الضروري تطمين الزعماء السوريين ايضاً .

٧ . اسرائيل

لقد وضعت كتب عديدة في وصف دولة اسرائيل حتى اني اتردد عن اثقال كاهل جمهور القراء بوصف آخر . انها بالنسبة الي ارض تحتوي على متناقضات لم اشهد لها مثيلاً في حياتي ، ان شعبها متعدد اللغات جداً ؛ ومع ذلك فهو من اعمق الناس شعوراً بقوميته . ان سياستها وشعبها موغلان في الكتاب المقدس ومع هذا فانهما جد ملحدين ؛

ان التضحية الشخصية التي تتطلبها الحياة في المزارع الشعبية (كيبوتزيم) لتخيف أعند المزارعين الشعبيين في روسيا ؛ اما تعميم الخدمة العسكرية فيها فهو جدير بان يبدو شاملاً جداً حتى في نظر ايطاليا الفاشية التي ظلت بالرغم من تجنيدها الذي لاقى كثيراً من الاكبار والتعظيم تأخذ بالمبدأ القائل بان مركز المرأة هو داخل المنزل وليس وراء المدفع .

لقد أوجز بن غوريون حين اجتمعت اليه ، وكان مرتدياً حسب عادته قميصه المفتوح الطوق ، كل حاجات اسرائيل بقوله : « الهجرة والري » . وقد قال لي انه يأمل من الهجرة

زيادة عدد سكان اسرائيل الى اربعة ملايين ــ ما يقارب ضعفي العدد الحالي ــ مع جيش من ٥٠٠ الف مقاتل ما بين جند نظامي وميليشيا . فهذا وفقاً لكلامه ، من شأنه ان يضع اسرائيل في مأمن مطلق ضد جميع الطوارىء، مفرقة كانت او موحدة؛ وهنالك ضمن الحدود الحالية من المتسع والعمل ما يكفي لإسكان هذا العدد كله ، شرط ان يتم ري النقب .

لم يذكر بن غوريون من اين ينوي الاتيان باليهود المليونين الجدد . فقد اعترف بان اقصى عدد يمكنه تجميعه من الموردين الباقين ــ شمالي افريقيا واوروبا الشرقية ــ هو ٥٠٠ الف فقط؛ وللحصول على المليون والنصف المليون الاخرين يجب ان تفتح روسيا ابوابها ، وحتى بن غوريون نفسه لا يستطيع ان يلمح كيف يمكن حملها على هذا العمل الذي لم يسبق له مثيل . وقد قال ، على اية حال ، ان اسرائيل ليست بحاجة الى توسيع حدودها لاستيعاب هؤلاء السكان ؛ ولكن لن يكون ثمة اي نية بتخلي اسرائيل عن اية قطعة من الارض التي تحتلها حالياً في سبيل الوصول الى اتفاق مع جيرانها العرب ، فاسرائيل تحتاج الى كل شبر من اراضيها وهي مصممة على الاحتفاظ بها ...

واذ شعرت انه ليس من فائدة من الاستمرار في مباحثة بن غوريون بشأن التخلي عن بعض الاراضي ، حاولت طرق باب آخر مشيراً الى اني قد استخلصت من خلال زيارتي للعالم العربي ان ثمة صعوبة كبيرة في الاتفاق لان العرب يطلبون ان تتراجع اسرائيل الى حدود ١٩٤٧ التي وضعتها الامم المتحدة،

وهذا ناتج عن تخوف العرب من ان يـؤدي استمرار الهجرة الى محاولة اسرائيل التوسع على حسابهم . وقد كان من السهل ان يتبين المـرء ان السبب الذي يكمن وراء مقاطعه العرب اسرائيل ليس قومياً او عنصرياً ، انما هو تخوف من مزاحمة اسرائيل الاقتصادية وتسرب رساميلها الى بلادهم . فان التعليل المعهود الذي يقدمه معظم العرب هو : « لقد اغتصب اليهود ارضنا وهم الان ينـوون اغتصاب اعمالنا » .

وبعد ذلك سألت بن غوريون ما اذا كانت اسرائيل تستطيع ان تعطي العرب ضمانات حـول معدل دخـول المهاجرين السنوي الى اسرائيل . ان تصريح اسرائيل بأنها تهدف الى مضاعفة عدد سكانها ، في حين انه ليس ثمة من يعرف كيف يكون ذلك ولا من اين يؤتى باليهود الاضافيين ، انما يشكل قلقاً جديداً لدى جيرانها العرب لا فائدة منه .

وكان رد بن غوريون حاسماً لا تردد فيـه ؛ قال : لا يمكن ان يكون ثمة تحديد للهجرة . فهذا يخالف حقوق الشعب اليهودي التاريخية المسجلة في الكتاب المقدس (كذا) . فمعه كما مع جميع الذين تحدثت اليهم في اسرائيل كنت اسمع اخر الامر الحجة المعتمدة عـلى التوراة . وكان ذلك اشبه بنهاية آخر وميض امل تبقّى لديّ في ان يتم بين العرب واسرائيل اتفاق عام في المستقبل القريب .

اذن ما هو مستقبل اسرائيل ؟

لقد برهنت عسكرياً عن تفوقها المباشر على جيرانها ، ولكن مع توالي السنين هل ستظل هذه المغامرة العجيبة قادرة على الاحتفاظ بالزخم اللازم للبقاء على قيد الحياة ضد ثقل عدد العرب المطّرد والذي هو منذ الان في تفوق ساحق ؟

من الاكيد ان اسرائيل مدفوعة اليوم بمثالية الفتوة العاتية . فالفتوة عامة في المزارع الشعبية (كيبوتزيم) وقد قيل لي في احد هذه المزارع عندما زرتها ان متوسط العمر فيها هو ٢٥ سنة فقط . والفتوة هي التي أنشأت في بضعة اشهر فقط انابيب البترول الممتدة من ايلات الى بئر السبع . ان العمود الفقري لاسرائيل هو استغلال الاراضي الجديدة الذي تقوم بها الفتوة . وكما قال لي احد الدبلوماسيين الغربيين : « ان هنالك وجهتي نظر في اسرائيل : وجهة النظر الاسرائيلية من جهة ، ووجهة النظر الخاطئة من جهة اخرى » (١)

ولكن كيف سيكون الامر بعد ان تصبح اسرائيل في عمر متوسط وتنتهي الهجرة اليها ؟ هل الحياة في الكيبوتزيم ستكون مؤاتية للسكان بعد ان يتقدموا في السن ؟ هل ستكون الاجيال المقبلة مستعدة للعيش بعيدة عن عائلاتها

---

(١) يقصد بذلك ان الاسرائيليين يعتبرون كل من يخالفهم في الرأي مخطئاً ، وان الصواب بجانبهم وحسب ... (المعرب)

واطفالها وتقبل الى ما لا نهاية له حياة العامل المعتمد على الاعانات والذي لا يتقاضى الا خمسة جنيهات استرلينية سنوياً ك « مصروف جيب » ؟ وهنالك ايضاً خطر يهدد بأن تطغى العناصر الشرقية على العناصر الاوروبية من السكان وان تؤدي الهجرة الى اوروبا واميركا من جديد الى رحيل الخبراء والفنيين والمهنيين الغربيين . وقد اعترف لي بن غوريون ان هذا الامر يشكل قلقاً مستديماً . فبين عام ١٩٥٢ وعام ١٩٥٤ كانت الهجرة الى الخارج تفوق الهجرة الى الداخل ، والراحلون كانوا جميعهم تقريباً من الغربيين . واعتماداً على كل هذا نستطيع ان نقول ان حيوية الربيع سوف تخور والجذور في الارض سوف تعمق . ان الكلمة التي تسمع على لسان كل اسرائيلي هي : « اننا نتمسك بما نملك ، لانه من حقنا كما جاء في التوراة » هذه هي كلمتهم اليوم ، وسوف يقاتلون كي ينفذوها في المستقبل. (كذا) .

من الغريب ان اسرائيل لا تتفهم نفسية جيرانها العرب الذين اختارت ان تعيش بينهم ايما تفهم صحيح . وقد لاحظت عدم التفهم ذلك اول مرة عندما قمت بزيـــارة احدى المزارع الشعبية ــ وهي قريبة من قطاع غزة . كان رئيس هذه المزرعة انكليزياً يبلغ الخامسة والعشرين من عمره . وقد اتي مؤخراً بهذا الانكليزي وبعض اصحابه من نفس الجنسية لكي يحلوا محل العناصر الرومانية التي

اصبحت على شيء من الطعن في السن - كان متوسط اعمارهم ٢٨ سنة ! - والتف حولي الشباب الانكليز وراحوا يمطرونني باسئلتهم حول عبد الناصر والاردن وسوريا . وقد قال رئيس الكيبوتزيم : « اخبرنا ، هل ان عبد الناصر ديكتاتور فاشي ام هو مصلح اجتماعي عبقري ؟ » فاجبت « انه ربما كان فيه شيء من الاثنين . ولكن ليس من الممكن تصنيف الزعماء العرب بسهولة في صفوف معينة » .

نستطيع ان نقول ان هذا من جهل الشباب ليس الا . ولكن الشباب هو اسرائيل ، واسرائيل هي الشباب والشابات في الكيبوتزيم القائم على حدود غزة ، وفي جميع الكيبوتزيمات في جميع الجهات . ان الجهل الذي شهدته هو جهل اسرائيل عينها ، جهل امة من الناس اعمتهم جرأتهم حتى اضحوا لا يعرفون شيئاً عن المشكلة الرئيسية التي تعترض بينهم وبين حالة من السلم ، والتي هي مخاوف العالم العربي وظنونه.

ليس هنالك من بين الزعماء السياسيين الذين عرفتهم في اسرائيل من يعرف شيئاً عن العقلية العربية الا بن غوريون وحده . فهو خلافاً لأغلبية مستشاريه ، فلسطيني قديم سبق له ان عاش في العالم العربي منذ بداية هذا القرن . ان وزارة خارجيته في يد سيدة قدمت الى اسرائيل من مدينة ميلووكي الاميركية بعد الحرب العالمية الثانية ، واكثر موظفيه الرئيسيين هم من القادمين الجدد .

لقد قضيت فترة طويلة مع السيدة مـــاير ، وزيرة الخارجية ، اناقشها في كل مظهر من مظـــاهر سياسة اسرائيل الخارجية . وكنت نُبّهت الى انني سوف اجدها صدى لبن غوريون ومجردة من كل شخصيـــــة . ولكن الذي رأيته كان بالفعل عقلية اكثر صـــــلابة بكثير من عقلية بن غوربون . واستطيع ان اصرح بانها عقلية مقفلة بوجه كل فكرة من شأنها ان تخفف من حدة العلاقات العربية الاسرائيلية او ان تسهل مهمة المعتدلين من العرب في التفوق على المتطرفين منهم . لقد تكلمنا عن قنـــــاة السويس وعن خليج العقبة . فكان موقفها اولا واخراً ان اسرائيل سوف تؤمن مرورها بالقوة على الاقل في خليج العقبة (كذا) . فلم يكن ثمة جدوى من تنبيهها الى ان هذا الموقف الصارخ لا يفيد الا عبد الناصر عن طريق ارغام اخوانه العرب رفع الصوت لدعمه في حصاره . ولم يكن من جدوى ايضاً في التنبيه الى ان اسرائيل تفيـــــد تأييداً اكبر لدى الرأي العام العالمي ان هي عرضت قضيتها على محكمة العدل الدولية مما لو حاولت خرق طريقهـــــا عبر السويس بالرصاص . وتذرعت السيدة ماير بانه قد سبق لاسرائيل ان استنفدت اجراءات الامم المتحدة بالتجائها الى مجلس الامـــن عـــام ١٩٥١ . امـــــا الان فعـــلى مجلس الامـــن ان يـــرى كيـــف تُنَفَّـــذ قراراته ، التي ايدت حقوق اسرائيل ، (كذا) فاذا لم

يؤيدها فان اسرائيل ستعرف اي نوع من الاصدقاء لها في الامم المتحدة ...

وانتهت السيدة ماير الى القول ان الاسرائيليين ، سواء تمكنوا من خرق قناة السويس بالقوة ام لم يتمكنوا ، ينوون الاستمرار في إعداد مشاريعهم لبناء انابيب للبترول من خليج العقبة الى المتوسط واحياء مصفاة حيفا . وهذا المشروع الذي لا يمر الا في اراض اسرائيلية لن يحتاج الى قناة السويس ، واذا ما حدثت اية عرقلة من جهة العرب ، فان الحاميات الاسرائيلية سوف تمكن ناقلات الزيوت من المرور بالقوة . (كذا)

فأشرت الى ان العرب ، وان غضوا الطرف عن ناقلة استثنائية قاصدة الى ايلات وعليها من البترول ما يكفي لانارة المصابيح الاسرائيلية ، فلا ريب ان رد الفعل عندهم سيكون عنيفاً فيما اذا كان هذا النفط انما يمر ليغذي خط انابيب اسرائيل ويتجاوز حصار السويس ؛ غير ان هذا العنف ليس اقصى ما يستطيع العرب القيام به . وقد لُفِت نظري الى ذلك في اماكن عديدة كبغداد مثلا فهم جديرون بان يوقفوا النفط من ينابيعه . هنالك حالياً شحنة ناقلة واحدة من البترول الايراني تقصد الى ايلات كل شهر . ولقد منعت شركة النفط الايرانية رسمياً شحن هذه الكمية الضئيلة نفسها مراعاة للعرب . ولكن التسليم يجري على يد شركة فرعية ، ولما كانت كمياته

لا تذكر فالعرب لايكلفون نفسهم عناء عرقلتها لا عند منبعها ولا في خليج العقبة . اما اذا طرأت زيادة فانها سوف تؤدي الى توقف الحركة بكاملها . فالايرانيون لن يدعوا هذا البترول يخرج من اراضيهم، وان فعلوا فان العرب لن يتركوه يصل ابداً .

لكن السيدة ماير ضربت بكل هذه المجادلات عرض الحائط . لقد قالت إن لاسرائيل الحق في شراء البترول وليس لمصر اي حق في منعها عن ذلك . واذا ساير الايرانيون المصريين فستعرف اسرائيل مرة اخرى من هم اصدقاؤها ومن هم اعداؤها ..!

ولقد نبهني هذا النقر الدائم على وتر امتحان الاصدقاء بكل جلاء الى ان اسرائيل ، شأن بعض جيرانها العرب ، انما تفضل حالة العداء على حالة السلام . فحالة العداء تساعد على توحيد الشعب وعلى جعل المحسنين عبر البحار يواصلون احسانهم . اما سياسة السلام فقد تؤدي الى هزات عنيفة في الداخل ، وربما انضبت المساعدات الخارجية .

وقد تحققت من ان تذمر اسرائيل من الامم المتحدة وقوات الطوارىء بالغ اشده . فالسيد هامرشولد مكروه في اسرائيل اقل بقليل من عبد الناصر نفسه ، لما يزعمونه من شدته على اسرائيل ولينه مع مصر . اما قوات الطوارىء الدولية فهي تلاقي حملة عنيفة من « السخط » . وليس

ثمة اسرائيلي واحد مستعد لان ينسب اليها الفضل في اقرار السلم الذي يكاد يكون كاملاً على الحدود الاسرائيلية منذ تسلمت هذه القوات مراكزها .

ان هذا القدح وهذا التحقير للامم المتحدة لفاجعان وليسا من الحكمة في شيء . فمن جهة كان بوسع قوات الطوارىء ان تشكل طلائع شيء عظيم لو ان اسرائيل قبلت بها على الجهة الاخرى من الحدود ، وذاك انها لم تكن فقط لتقف حاجزاً مادياً منيعاً بوجه كل اعتداء من اية جهة كان ، انما كان بوسعها ايضاً ان تضع القاعدة لبوليس دولي ذي فعالية حقيقية . ثم ، بصرف النظـــر عن كل ذلك ، ليس من المفيد للذين يبغون حل المشكلة ان يظل الناطقون باسم اسرائيل يبثون الشك بالامم المتحدة بين صفوف شعبهم . فكما قال لي السيد اردلان وزير خارجية ايران : ليس مـــن يستطيع حل النزاع الاسرائيـــلي – العربي الا الامم المتحدة . هذا صحيح ، وأن كان اليوم الذي ستتمكن فيه هذه المنظمة من العمل ما زال بعيداً ، وقد تكون مأساة السويس من الأسباب التي زادته بعداً .

ومهما تشكت من الامم المتحدة تلك الدول التي شعرت بانها في خلاف معها او شعرت بأنها لم تتمكن من وضع حل لنزاعاتها ، فان معظم الامم ما زالت تؤمن بها وترجع اليها في سبيل العدل والامن . وليس ثمة هيئة اخـــرى او مجموعة من الامم تتمتع بنفس التجرد مع الدول العربية

لكي تاخذ على عاتقها تربيع هذه الحلقة المفرغة ــ معضلة فلسطين .

حتى وان ظلت اسرائيل ضمن حدودهــا فليس من الممكن الوصول الى اتفاق طالما ان الهجرة الى اسرائيل في تعاظم ، وطالما ان العرب يشعرون بتخلف عن اسرائيــل عسكرياً (كذا) واقتصادياً . ان الوحدة بين العرب هي وسيلتهم الوحيدة للنجاح ، ولكن الوحدة العربية تحتاج الى زمن طويــل . فكما صرح لي رجال وزارة الخارجيــة الاسرائيلية : سوف تصطنع اسرائيــل كل السبل لتبقي جيرانها العرب متفرقين (كذا) فالهلال الخصيب عدائي بنظرهم وليس دفاعياً ، والوحدة العربية لا تعني بنظــر اسرائيل مقعد مساواة يساعدها على إجراء المفاوضات ، ولكنها تعني منبراً تصدر من فوقه الاوامر ، او تــدبر الحرب الانتقامية ...

ولكن هنالك الان مشكلة لا يسعها انتظار الوصول الى اتفاق وهي مشكلة اللاجئين العرب ، الذين يبلغ عددهم ٦٠٠ الف في الاردن .

لقد تناقشت مع بن غوريون حول هذا الامر ، مشيراً الى الخطر الدائم الذي يشكله لاسرائيل هؤلاء الآلاف من المشردين الذين لا بيوت لهم ولا امل ، والمقيمين والمتزايدين على ابوابها . ان اسرائيل لا تستطيع ان تضمن انهم لن يزحفوا في يوم من الايام صفاً واحداً الى داخل اسرائيل

ويسترجعوا اراضيهم . وعندئذ ماذا يستطيع الاسرائيليون ان يفعلوه لايقافهم ؟ هل يطلقون عليهم النار ؟ لا شك في ان بن غوريون لم يرق له هذا التقدير . فقال ان اسرائيل مستعدة ، اذا ما قام الاردن بعمله جيداً ، لاعادة توطين قسم من اللاجئين الموجودين الان في الاردن . وسألته : « حتى ولو لم يكن ثمة اتفاق عام ؟ » وهز بن غوريون رأسه ان نعم . ولكنه اسرع في الاستدراك : اما اذا لم ينفذ الاردن التزاماته فيعتبر الامر ملغى (كذا) .

مما لا شك فيه ان مثل هذا التخطيط لا يوفي العرب جميع حقوقهم . ولكن أمن الاردن ، بصرف النظر عن رخائه ، يضطره الى القبول بحل وسط (كذا) . ومن جهة اخرى اذا كانت اسرائيل تستطيع مبدئياً توطين مليونين اخرين من اليهود ، فهي حتماً قادرة على اعادة توطين ١٠٠ الف من اللاجئين العرب .

ان مشروعاً كهذا لن يكون غير اتفاق جزئي . ولكن سرطان مشكلة اللاجئين يحتاج الى اجراء جراحة سريعة . ومن يدري ، فلعل هذه العملية الجراحية ان تكون خطوة اولى نحو الشفاء التام ونحو الاستقرار في الشرق الاوسط ؟ وعلى اية حال ، فليس في القيام بهذه المحاولة اي ضرر .

٨. مصر

كان قد انقضى على زيارتي لمصر وعبد الناصر سنتان ونصف السنة. ومع هذا كنت اتوقع بعض المفاجآت لدى وصولي الى القاهرة في نهاية رحلتي الطويلة ؛ ولقد حصلت على حصتي منها بالفعل. الا انني ؛ مع كل ما اوتيت من حسن نية ، لست استطيع ان اقول انني وقعت على تغير نحو الافضل.

كانت القاهرة قد لبست حلة عيد الفطر. ففي النيل كانت جمهرة من المصريين الشباب تصخب في زوارقها ناشطة بعد الوجبات الدسمة التي حظيت بها احتفالاً بالعيد. هذا ما شاهدته عند قدومي الى مصر (او عند خروجي منها) في المرة الماضية. ولقد رحبت نفس الاصوات ونفس المشاهد آنذاك بتوقيع عبدالناصر وبتوقيعي انا للمعاهدة الانكليزية المصرية سنة ١٩٥٤

ولقد كان عبد الناصر نفسه جد متغير عن ذلك الرجل الذي تفاوضت معه عام ١٩٥٤. فدعابته هي الامر الوحيد

الذي لم يتبدل. لقد قال لي: «ان لم يساعد الغرب مصر، فسوف أتجه نحو روسيا.»

لقد قال لي ان الغرب لا يفهمه وخاصة صحافة الغرب، ثم استشهد على سبيل المثال ببعض المقالات التي نشرتها انا بنفسي في صحيفة «نيويورك هيرالد تريبيون» في اوائل العام. وقال: «انت ايضا مخدوع بالصحافة الغربية:» وفيما بعد تعجب عبد الناصر من كوني لا ازال اقطن في انكلترا بعد ان كتبت احدى الصحف اللندنية انني رحلت الى نيويورك. فقلت له مداعباً «انني لم أُنفَ بعد يا حضرة الرئيس، فهل انت ايضاً خدعتك الصحافة الغربية ؟!» فضحك للنكتة من كل قلبه.

وعندما سألته عن ضغط مصر على السودان وليبيا والاردن وسوريا والعربية السعودية، بصرف النظر عن امارات الخليج الفارسي سلم عبد الناصر بان الصاغ صلاح سالم، المقيم الآن اقامة جبرية في منزله، قد ضغط بعض الشيء على السودان. الا انه انكر دفع «قرش واحد» او استعمال اي ضغط على الاردن.

ثم عندما عرضنا لقضية السويس قال ان تغيير المستر دالاز موقفه فجأة تجاه سد اسوان قد صدمه باعتباره مؤامرة غربية للضغط على مصر. وهكذا كان عليه ان يظهر ان الدول الصغيرة تستطيع ان تخلق متاعب جمة للدول الكبرى. كما قال ايضاً ان الرأي العام العالمي لن

يسمح الان باي ضغط على مصر . ولما قلت له ان تأميم القناة قد اطاح بالضمانات الدولية المذكورة في اتفاقية ١٨٨٨ قال انه ينوي تحويل قراره (قرار التأميم) الى اتفاقيــة دولية . ولقد صرح الدكتور فوزي فيما بعد بهذا الشأن ان مصر لا تستطيع ان تسمح لاسرائيل بالتوقيع على مثل هذه الاتفاقية .

ولم نأت – كما لو كان بيننا اتفاق سابق – على ذكر الحملة الانكليزية الفرنسية الا نادراً . لقد كان عبدالناصر يعتقد ، ككل عربي ، ان مثل هــذا العمل يتميز به الفرنسيون ولكنه من المستغرب ان تقوم بريطانيا بمثل هذا العمل وفي مثل هذه الطريقة . وقد ذكر لي بهذا الصدد انه بعيد تأميم القنال سأل دوائر الاستعلامات عن احتمال شن بريطانيا هجوماً على مصر فكانت النتيجة ان ٦ ضد ٤ قالوا بان بريطانيا لن تقوم بعمل منفرد ، وانه ليس ثمة اي احتمال بقيام عملية بريطانية اسرائيلية مشتركة. ولما تسلم بعــد ذلك في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٩٥٦ ، التهديد البريطاني الذي يأمره بالتراجع عن القناة وبافساح المجال أمام القوات البريطانية الفرنسية ، لم يمكنه التصديق بان ذلك التهديد جدي .

وفيما بعــد راودته الفكرة بان الامر ليس الا حيلة بريطانية لحمله على الاحتفاظ بأفضل قواته في بور سعيد ومن ثم السماح للقوات الاسرائيلية باجتياح شبه جزيرة سينا

وبلوغ ضفة القناة الشرقية .

وفيما يتعلق باسرائيل فقد قال عبد الناصر انه فقد كل امل باستمرار حالة الاستقرار بين اسرائيل والعرب منذ تسلم بن غوريون منصب رئاسة الوزارة ومنذ اقيل موشى شاريت وزير الخارجيــة الذي طالما استخدم نفوذه للدعوة الى الاعتدال .

لقد حصلت هذه التبديلات المشؤومة إبان شن الاسرائيليين هجومهم التخريبي على غزة في أوائل سنة ١٩٥٥ قاتلين ستين مصرياً وجارحين بضع مئات . وقد اكد هذا العمل اسوأ شكوكه في أن بن غوريون كان ينوي تدمير مصر فعلاً .

وأشرت الى ان بن غوريون قد استخلص نفس الاستنتاجات حوله منذ بدأ يشتري الاسلحة من السوفيات . لكن هذا جعل عبد الناصر يسهب في الكلام على موضوع الاسلحة وغيرها من المساعدات التي يقدمها الغرب لاسرائيل ويرفض تقديمها الى مصر . وقد اظهر في هذا الصدد سخطاً خاصاً على الولايات المتحدة التي حاولت تجويع مصر كي تخضعها لمشاريعها الاستعمارية ، والتي كانت تساعد اسرائيل بمساعدات خاصة وهبات حكومية .

واخيراً لقــد قال لي عبد الناصر ، فيما يتعلق بالسد العالي ، انه ينــوي البدء به عام ١٩٥٨ فالمرحلة الاولى الممتدة على خمس سنوات تكلف ٦٠ مليون جنيه استرليني ،

وهي من ناحية الري فقط سوف تسجل ربح ٧٠٠ الف
فدان للزراعة ذات المواسم الثلاثة .

انتهى

فهرست



سلسلة كتب جديدة تتناول أخطر قضايا الساعة

صدر منها :

١ . اللعب بالنار   لجيمس فورستال

نقله الى العربية الاستاذ رمضان لاوند

٢ . ديناميت في الشرق الاوسط للدكتور خليل طوطح

٣ . ديناميت في الشرق الاوسط   »   »   »

٤ . اسرائيل جريمتنا   للدكتور ميلر بورروز

ثمن النسخة ٧٥ قرشاً لبنانياً


اللامنتمي
عنوان غريب
لكتاب غريب!
طبع عشر مرات في انكلترا خلال
أربعة أشهر ...
قال عنه ناقد عالمي: «إنه
أعظم كتاب ظهر في أوروبة
في القرن العشرين.»
وسيرى القراء العرب
أنه أعظم كتاب ترجم الى
العربية حتى الآن ...
دار العلم للملايين

ظهر حديثاً عن دار العلم للملايين

ق.ل

- هذا العالم العربي للدكتور نبيه فارس والاستاذ محمد توفيق ٣٠٠
- العرب والحضارة الحديثة للأساتذة أحمد زكي وصبحي المحمصاني وأحمد سامح الخالدي وبهجت الاثري ٢٠٠
- مؤامرة اليهود على المسيحية للاستاذ اميل الخوري حرب ١٥٠
- واقع العالم العربي للدكتور جورج حنا ١٥٠
- قبل فوات الاوان للدكتور أديب نصور ٢٥٠
- النكبة والبناء للدكتور وليد قمحاوي ٦٠٠
- معالم الحياة العربية الجديدة (الطبعة الثانية) للدكتور محمد منيف الرزاز ٤٠٠
- أزمة التمدن العربي للاستاذ محمد وهبي ٢٠٠
- ضجة في صف الفلسفة للدكتور جورج حنا (ط. الثالثة) ١٢٥
- أيّ غد ؟ للدكتور قسطنطين زريق ٢٠٠
- أسرار الحملة على مصر (الطبعة الثانية) للصحفيين الفرنسيين بومبرغر ١٥٠
- هكذا يضيع الشرق الاوسط لألفرد ليلنتال ٣٠٠
- ضد التعذيب في الجزائر بيير هنري سيمون ١٠٠
- أزيلوا اسرائيل – هذا هو الحل ! للكاتبة الاميركية ايلين بيتي ١٥٠

٣٠٢ – ٤٠٠٠ – ١٩٥٨

عن المؤلف والكتاب

● ليس انتوني ناتنغ مجهولاً عندنا نحن العرب ، فقد كان وزير الدولة للشؤون الخارجية في وزارة ايدن عندما وقع العدوان الثلاثي المسلح على مصر . وقد كان ناتنغ من الذين عارضوا في استخدام القوة كحلٍ لأزمة قناة السويس ، ولما عجز عن اقناع زملائه برأيه آثر الاستقالة من الحكم ...

● وعقب هذه الاستقالة قام انتوني ناتنغ بزيارة الى الشرق الاوسط زار فيها **مراكش ، والجزائر ، وتونس ، والعراق ، ومصر ، ولبنان ، وسوريا ، والاردن ، واسرائيل وغيرها ..**

● وفي هذه الرحلة درس ناتنغ الاوضاع في هذه البلاد ، بعد خروج مصر ظافرة من معركة القناة ، واجرى أحاديث هامة مع الرئيس **جمال عبد الناصر ، والملك سعود ، والملك حسين والملك فيصل ، ونوري السعيد**، والحبيب بو رقيبة، وسي بكاي وبن غوريون ، وغيرهم ...

● وفي هذا الكتاب يقع القاريء على الانطباعة التي خلّفها كل من هؤلاء في نفس المؤلف وعلى نصوص الاحاديث التي دارت بينه وبينهم ...

● وفوق هذا يجد القاريء في هذا الكتاب فصلاً خطيراً عن الجزائر وحركة التحرير الجزائرية كتبه المؤلف اثر زيارته لتلك البلاد المناضلة ، المؤمنة بحقها في الحياة !

الثمن ١٠٠ ق.ل. اوما يعادلها

مطابع دار العلم للملايين
بيروت